

الباب الرابع

في البلدان والأصهار وسائر إميران وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق

أفصل الأول

في أن الدول أقدم من المدن والأصهار وإنما توهم ثانية عن الملك

وبيانه أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة كما قدمناه. وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها. وأيضا فالمدُن والأصهار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير. وهي موضوعة للعموم لا للخصوص، فتحتاج إلى اجتماع الأيدي، وكثرة التعاون. وليست من الأمور الضرورية للناس التي تنعم بها البلوى، حتى يكون نزوعهم إليها اضطراراً؛ بل لا بد من إكراههم على ذلك، وسوقهم إليه مضطهدين بعصا الملك، أو مرغبين في الثواب والأجر الذي لا يفي بكثرة إلا الملك والدولة. فلا بد في تمصير^(١) الأصهار واختطاط المدن من الدولة والملك.

ثم إذا بُيئت المدينة وكُمّل تشييدها بحسب نظر من شيدها، وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها؛ فعمر الدولة حينئذ عمر لها. فإن كان عمر الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمراتها وخربت، وإن كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منفسحة، فلا تزال المصانع فيها تُشاد والمنازل الرحبية تكثر وتتعدّد، ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح^(٢)، إلى أن تتسع الخطّة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها.

ذكر الخطيب في تاريخه أن الحمّامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين

(٢) ينفسح: يتسع.

(١) أي إقامة المدن وبنائها.

ألف حمام، وكانت مُشتملة على مدين وأمصارٍ متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين، ولم تكن مدينةً وحدها يجمعها سورٌ واحدٌ لإفراط العمران. وكذا حال القيروان وقزطبة والمهدية في الإملة الإسلامية، وحال مضر القاهرة بعدها فيما يبلغنا لهذا العهد.

وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة: فإما أن يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبساتين باديةً يمدّها العمران دائماً؛ فيكون ذلك حافظاً لوجودها، ويستمرُّ عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب، وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال؛ لأنَّ أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرّفه والكسب، تدعو إلى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر؛ فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون. وأما إذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادةً تفيدها العمران بتراذف الساكن من بدوها^(١)، فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياجها، فيزول حفظها، ويتناقص عمرانها شيئاً فشيئاً، إلى أن يذعر^(٢) ساكنها وتخرب؛ كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب، وأماليها فتفهمه. وربما ينزل المدينة بعد انقراض محتطيها الأولين ملك آخر ودولة ثانية، يتخذها قراراً وكرسيّاً يستغني بها عن اختطاط مدينة ينزلها. فتحفظ تلك الدولة سياجها، وتترايد مبانيها ومصانئها، بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها، وتستجد بعمرانها عمراً آخر، كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

لفصل الثاني

في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار

وذلك أنَّ القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الأمصار لأمرين: أحدهما ما يدعو إليه الملك من الدعة والراحة وحط الأتقال، واستكمال ما كان ناقصاً من أمور العمران في البدو؛ والثاني دفع ما يتوقّع على الملك من أمر المنازعين والمشاعين. لأنَّ المضر الذي يكون في نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم، والخروج عليهم، وانتزاع ذلك الملك الذي سموا إليه من أيديهم؛ فيعتصم بذلك المضر ويغاليهم. ومغالبة المضر على نهاية من الصعوبة والمشقة. والمضر يقوم مقام العساكر

(١) أي توالي هجرات البدو إلى المدينة.

(٢) يذعر: ينفرق.

المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كثيرٍ عددٍ ولا عظيمٍ شوكة. لأنَّ الشوكة والعصابة إنما احتيج إليهما في الحرب للثبات، لما يقع من بعد كزة القوم بعضهم على بعض عند الجولة، وثبات هؤلاء بالجدران؛ فلا يضطرون إلى كبير عصابة ولا عدد. فيكون حال هذا الحصن، ومن يعتصم به من المنازعين، مما يُفتى في عُضد الأمة التي تروم الاستيلاء، ويخضد^(١) شوكة استيلائها. فإذا كانت بين أجنابهم أمصارًا انتظموها في استيلائهم للأمن، من مثل هذا الانحرام؛ وإن لم يكن هناك مصرٌ استحدثوه ضرورةً لتكميلِ عمرانهم أولًا، وحطُّ أثقالهم، وليكون شجًا في خلقٍ من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم. فتعين أنَّ الملك يدعو إلى نزولِ الأمصار والاستيلاء عليها. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق لا رب سواه.

لفصل الثالث

في أن المدن لعظيمة

والرياحل لمرتفعة إنما يشيد لها الملك الكثير

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها، وأنها تكون على نسيبها. وذلك أنَّ تشييد المدين إنما يحصلُ باجتماع الفعلة^(٢) وكثرتهم وتعاونهم. فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك، حشِرَ الفعلة من أقطارها، وجمعت أيديهم على عملها. وربما استعين في ذلك في أكثر الأمر بالهندام^(٣) الذي يضاعف القوى والقدر في حمل أثقال البناء، لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك، كالمحال^(٤) وغيره. وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين متفرقين أو مجتمعين؛ فيتخيل لهم أجسامًا تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير، في طولها وقدرها، لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها. ويُغفل عن شأن الهندام والمحال، وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية.

وكثير من المتغلبين في البلاد يعاين في شأن البناء، واستعمال الجبل في نقل الأجرام عند أهل الدولة المعتنين بذلك من العجم، ما يشهد له بما قلناه عيانًا. وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تُسميها العامة عاديةً، نسبةً إلى قوم عاد، لتوهمهم أنَّ مباني عادٍ ومصانعهم إنما

١ - الفعلة : العمال .
٢ - المحال : الرافع للأثقال .

يخضد : يضعف .
٣ - أي الآلات الرافعة .

عَظُمَتْ لِعِظَمِ أَجْسَامِهِمْ وَتَضَاعَفَ قُدْرِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَقَدْ نَجَدُ آثَارًا كَثِيرَةً مِنْ آثَارِ الَّذِينَ تُعْرَفُ مَقَادِيرُ أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ ، وَهِيَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْعِظَمِ أَوْ أَعْظَمِ ، كِإِيْوَانِ كِسْرَى وَمِبَانِي الْعُبَيْدِيِّينَ مِنَ الشَّيْبَعَةِ بِإِفْرِيقِيَّتِهِ ، وَالصَّنْهَاجِيِّينَ ، وَأَثْرُهُمْ بَادٍ إِلَى الْيَوْمِ فِي صَوْمَعَةٍ قَلَعَةٍ بَنَى حَمَادٌ . وَكَذَلِكَ بِنَاءُ الْأَغَالِيَةِ فِي جَامِعِ الْفَيْرَوَانِ ، وَبِنَاءُ الْمَوْجِدِينَ ، فِي رِبَاطِ الْفَتْحِ وَرِبَاطِ السَّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ لِعَهْدِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فِي الْمَنْصُورَةِ بِإِزَاءِ تِلْمَسَانَ . وَكَذَلِكَ الْحَنَايَا الَّتِي جَلَبَتْ إِلَيْهَا أَهْلُ قَرطَاخِنَةَ الْمَاءِ فِي الْقَنَاةِ الرَّابِئَةِ عَلَيْهَا مَائِلَةٌ أَيْضًا لِهَذَا الْعَهْدِ . وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمِبَانِي وَالْهَيَاكِلِ الَّتِي نُقِلَتْ إِلَيْنَا أَحْبَارُ أَحْبَارِ أَهْلِهَا قَرِيبًا وَبَعِيدًا ؛ تَبَيَّنَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بِإِفْرَاطٍ فِي مَقَادِيرِ أَجْسَامِهِمْ . وَإِنَّمَا هَذَا رَأْيٌ وَلَيْعَ بِهِ الْقَضَاؤُ عَنْ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ . وَنَجَدُ بُيُوتَ ثَمُودَ فِي الْحَجَرِ مَنْحُوْتَةً إِلَى هَذَا الْعَهْدِ . وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهَا بِيُوتُهُمْ يَمُرُّ بِهَا الرَّكْبُ الْجِجَازِيُّ أَكْثَرَ السَّنِينَ ، وَيَشَاهِدُونَهَا لَا تَزِيدُ عُوجُ فِي جَوْهَا وَمَسَاحَتِهَا وَسَمَكِهَا^(١) عَلَى الْمُتَعَاهِدِ . وَإِنَّهُمْ لِيَبَالِغُونَ فِيمَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ ذَلِكَ . حَتَّى إِنَّهُمْ لِيَزْعُمُونَ أَنَّ عُوجَ بَنِ عِنَاقَ مِنْ جَبَلِ الْعَمَالِقَةِ ، كَانَ يَتَنَاوَلُ السَّمَكَ مِنَ الْبَحْرِ طَرِيًّا فَيَشْوِيهِ فِي الشَّمْسِ . يَزْعُمُونَ بِذَلِكَ أَنَّ الشَّمْسَ حَارَّةٌ فِيمَا قُرُبَ مِنْهَا ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْحَرَّ فِيمَا لَدَيْنَا هُوَ الضَّوُّ لِأَنْعِكَاسِ الشُّعَاعِ بِمُقَابَلَةِ سَطْحِ الْأَرْضِ وَالْهَوَاءِ . وَأَمَّا الشَّمْسُ فِي نَفْسِهَا فَغَيْرُ حَارَّةٍ وَلَا بَارِدَةٍ . وَإِنَّمَا هِيَ كَوْكَبٌ مُضِيءٌ لَا مِزَاجَ لَهُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي ، حَيْثُ ذَكَرْنَا أَنَّ آثَارَ الدَّوَلَةِ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّتِهَا فِي أَصْلِهَا . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُحْكِمُ مَا يُرِيدُ .

الفصل الرابع في أن الريا كل لعظيمة جهدا لا تستقل بناؤها الدولة الواحدة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَاجَةِ الْبِنَاءِ إِلَى التَّعَاوُنِ وَمُضَاعَفَةِ الْقُدْرِ الْبَشَرِيَّةِ . وَقَدْ تَكُونُ الْمِبَانِي فِي عِظَمِهَا أَكْثَرَ مِنَ الْقُدْرِ مَفْرَدَةً أَوْ مُضَاعَفَةً بِالْهِنْدَامِ كَمَا قَلْنَا ؛ فَيَحْتَاجُ إِلَى مُعَاوَدَةِ قُدْرِ أُخْرَى مِثْلَهَا فِي أَزْمَنَةٍ مُتَعَابِقَةٍ إِلَى أَنْ تَتِمَّ . فَيَبْتَدِئُ الْأَوَّلُ مِنْهُمْ بِالْبِنَاءِ وَيَعْقِبُهُ الثَّانِي وَالثَّلَاثُ ؛ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ اسْتَكْمَلَ شَأْنَهُ فِي حَشْرِ الْفَعْلَةِ وَجَمْعِ الْأَيْدِي ، حَتَّى يَتِمَّ الْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ وَيَكْمُلُ وَيَكُونُ مِثْلًا لِلْعِيَانِ . يَظُنُّهُ مَنْ يَرَاهُ مِنَ الْآخِرِينَ أَنَّهُ بِنَاءُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ .

(١) سمكها : أي سقفاها .

وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب، وأن الذي بناه سبأ بن يشجب، وساق إليه سبعين واديًا. وعاقه الموت عن إتمامه، فاتمه ملوك حمير من بعده.

ومثل هذا ما نُقِلَ في بناء قرطاجنة وقناتها الراكبة على الحنايا العادية. وأكثر المباني العظيمة في الغالب هذا شأنها. ويشهد لذلك أن المباني العظيمة لهدنا نجد الملك الواحد يشرع في اختطاطها وتأسيسها؛ فإذا لم يتبع أثره من بعده من الملوك في إتمامها بقيت بحالها ولم يكمل القصد فيها. ويشهد لذلك أيضًا أننا نجد آثارًا كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها، مع أن الهدم أيسر من البناء بكثير؛ لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذي هو العدم، والبناء على خلاف الأصل. فإذا وجدنا بناءً تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم، علمنا أن القدرة التي أسستهُ مفرطة القوة، وأنها ليست أثر دولة واحدة. وهذا مثل ما وقع للعرب في إيوان كسرى، لما اعترم الرشيد على هدمه، وبعث إلى يحيى بن خالد وهو في محبسه يستشيرهُ في ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه مائلًا يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل ذلك الهيكل. فأتهمه في التصيحة، وقال: أخذته الثعرة للعجم. والله لأصرعته. وشرع في هدمه وجمع الأيدي عليه، واتخذ له الفؤوس وحماه بالنار، وصب عليه الخل، حتى إذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة، بعث إلى يحيى يستشيرهُ ثانيًا في التجافي عن الهدم، فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل، واستمير على ذلك، لئلا يقال: عجز أمير المؤمنين ومليك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم، فعرفها الرشيد وأقصر عن هدمه.

وكذلك اتفق للمأمون في هدم الأهرام التي بمصر وجمع القعلة لهدمها؛ فلم يخل بطائل. وشرعوا في نقيه فانتهاوا إلى جوب بين الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان، وهناك كان منتهى هدمهم. وهو إلى اليوم فيما يقال منقذ ظاهر. ويزعم الزاعمون أنه وجد ركازًا^(١) بين تلك الحيطان. والله أعلم.

وكذلك حنايا المعلقة إلى هذا العهد تحتاج أهل مدينة تونس إلى انتخاب الحجارة لبنائهم وتستجد الصنائع حجارة تلك الحنايا؛ فيحاولون على هدمها الأيام العديدة. ولا يسقط الصغير من جذرائها إلا بعد عصب الزيق^(٢)، وتجمع له المحافل المشهورة. شهدت منها في أيام صباي كثيرًا. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦].

(٢) عصب الزيق: أي جفاه.

(١) أي كنزًا مدفونًا.

لفصل الخامس

فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك الرعاية

اعلم أنّ المدنَ قرارٌ تتخذُهُ الأممُ عند حصولِ الغايةِ المطلوبةِ مِنَ التَّرفِ ودواعيه؛ فتؤثرُ الدَّعةُ والسُّكونُ، وتتوجَّهُ إلى اتِّخاذِ المنازلِ للقرارِ. ولما كانَ ذلكَ للقرارِ والمأوى، وجبَ أن يُراعى فيه دفعُ المضارِّ بالحمايةِ من طوارِقها، وجلبُ المنافعِ وتسهيلُ المرافقِ لها؛ فأما الحمايةُ من المضارِّ فيُراعى لها أن يُدارَ على منازلها جميعاً سياجُ الأسوارِ، وأن يكونَ وضعُ ذلكَ في مُنتَهِجِ من الأمكنةِ إمَّا على هَضْبَةٍ متوغَّرةٍ من الجبلِ، وإمَّا باستدارةٍ بحريٍّ أو نهرٍ بها، حتى لا يوصلَ إليها إلاّ بعدَ العبورِ على جسرٍ أو قنطرةٍ فيصعبُ منالها على العدوِّ ويتضاعفُ امتناعُها وحصنُها. ومما يُراعى في ذلكَ للحمايةِ من الآفاتِ السَّماويَّةِ طيبُ الهواءِ للسلامةِ من الأمراضِ. فإنَّ الهواءَ إذا كانَ راکدًا خبيثًا، أو مجاورًا للمياهِ الفاسدةِ أو لمنافعٍ متعفِّنةٍ أو لمروجِ خبيثةٍ، أسرعَ إليها العَفَنُ من مُجاوَزَتها؛ فأسرَعَ المَرَضُ للحيوانِ الكائنِ فيه لا محالةً، وهذا مشاهدٌ.

والمدنُ التي لم يُراعَ فيها طيبُ الهواءِ كثيرةٌ الأمراضِ في الغالبِ. وقد اشتَهَرَ بذلكَ في قُطرِ المغربِ بلدُ قايسَ من بلادِ الجريدِ بإفريقيَّةٍ؛ فلا يكادُ ساكنُها أو طارِقُها يخلُصُ من حُمى العَفَنِ بوجهٍ. ولقد يقالُ إن ذلكَ حادثٌ فيها، ولم تكن كذلكَ من قبلُ. ونقلُ البكريُّ في سببِ حدوثه، أنه وقعَ فيها حفَرٌ ظهرَ فيه إناءٌ من نحاسٍ مختومٌ بالرصاصِ. فلما فُضَّ خِتانُهُ صَعِدَ منه دُخانٌ إلى الجوّ وانقطعَ. وكان ذلكَ مبدأً أمراضِ الحُمياتِ فيه. وأرادَ بذلكَ أنّ الإناءَ كانَ مُشتملاً على بعضِ أعمالِ الطَّلَّسَماتِ لوبائته، وأنه ذهبَ سيرُهُ بذهابه، فرجعَ إليها العَفَنُ والوباءُ.

وهذه الحكايةُ من مذاهبِ العامَّةِ ومباحثِهِم الرِّكيكةِ. والبكريُّ لم يكنْ من نباهةِ العِلْمِ واسهتارةِ البصيرةِ بحيثُ يَدْفَعُ مثلَ هذا أو يَتَبَيَّنُ خرقَهُ فنقله كما سمعه.

والذي يكشفُ لك الحقَّ في ذلكَ أن هذه الأهويةَ العَفِنَةَ أكثرُ ما يُهيئُها لتعفينِ الأجسامِ

وأمرض الحميات ركودها. فإذا تخللتها الرياح وتفشت وذهبت بها يمنا وشمالا، خف شأن العفن والمرض البادي منها للحيوانات.

والبلد إذا كان كثير الساكين وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة، وتحدث الرياح المتخللة للهواء الرائد، ويكون ذلك معينا له على الحركة والتموج. وإذا خف الساكن لم يجيد الهواء موعنا على حركته وتموجه، وبقي ساكنا راكدا، وعظم عفنه وكثرت ضرره. وبلد قايس هذه، كانت عندما كانت إفريقية مستجدة العمران، كثيرة الساكن تموج بأهلها موجا. فكان ذلك معينا على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الأذى منه؛ فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض. وعندما خف ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها، فكثر العفن والمرض. فهذا وجهه لا غير.

وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعت، ولم يراع فيها طيب الهواء. وكانت أولا قليلة الساكن؛ فكانت أمراضها كثيرة. فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك. وهذا مثل دار الملك بفارس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد، وكثير من ذلك في العالم. فنفهمه نجد ما قلته لك.

وأما جلب المنافع والرافق للبلد فيراعى فيه أمور: منها الماء، بأن يكون البلد على نهر، أو بإزائها عيون عذبة ثرة. فإن وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورة، فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة. ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعى لسائمتهم، إذ صاحب كل قرار لابد له من دواجن الحيوان للتناج والضرع والركوب، ولا بد لها من المرعى. فإذا كان قريبا طيبا، كان ذلك أرفق بحالهم، لما يعانون من المشقة في بعده. ومما يراعى أيضا المزارع، فإن الزروع هي الأقوات. فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها، كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله. ومن ذلك الشجر للحطب والبناء، فإن الحطب مما نغم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء^(١) والطبخ والخشب أيضا ضروري لسقيهم وكثير مما يشتغل فيه الخشب من ضرورياتهم. وقد يراعى أيضا قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد الثانية. إلا أن ذلك ليس بمشاة الأول. وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات، وما تدعو إليه ضرورة الساكن. وقد

(١) أي للتدفئة.

يكون الواضع غافلاً عن حسن الاختيار الطبيعي، أو إنما يراعي ما هو أهم على نفسه وقومه، ولا يذكر حاجة غيرهم، كما فعله العرب لأول الإسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وإفريقية؛ فإنهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم، من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء المالح. ولم يراعوا الماء، ولا المزارع، ولا الحطب، ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف، ولا غير ذلك؛ كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها. ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراعى فيها الأمور الطبيعية.

ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر، أن تكون في جبل، أو تكون بين أمة من الأمم موفرة العدد، تكون صريحاً^(١) للمدينة متى طرقها طارق من العدو. والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر، ولم يكن بساحتها عمراناً للقبائل أهل العصبية، ولا موضعها متوعّز من الجبل، كانت في غرة للبيات، وسهل طروقها في الأساطيل البحرية على عدوها وتحيفه^(٢) لها، لما يأمن من وجود الصريح لها. وأن الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالاً وخرجوا عن حكم المقاتلة، وهذه كالإسكندرية من المشرق، وطرابلس من المغرب، وبونة وسلا. ومتى كانت القبائل والعصائب موطنين بقربها، بحيث يبلغهم الصريح والتعير، وكانت متوعّزة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنمتها؛ كان لها بذلك منعة من العدو ويثسوا من طروقها، لما يكابدونه من وعرها، وما يتوقعون من إجابة صريخها. كما في سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها. فافهم ذلك واعتبره في اختصاص الإسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية، مع أن الدعوة من ورائها بيوتة وإفريقية؛ وإنما اعتبر في ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها. ولذلك - والله أعلم - كان طروق العدو للإسكندرية وطرابلس في الملة مرات متعدّدة. والله تعالى أعلم.

لفصل السادس

في الساجد والبيوت العظيمة في العالم

اعلم أن الله سبحانه وتعالى فضّل من الأرض بقاعاً اختصّها بتشريفه، وجعلها مواطن

(٢) تحيفه: أي ظلمه.

(١) أي نجدة.

لعبادته، يُضاعفُ فيها الثواب، وينمي بها الأجور. وأخبرنا بذلك على السننِ رُسُلُه وأنبيائه، لطفًا بعبادِهِ وتسهيلًا لطرقِ السعادةِ لهم.

وكانت المساجدُ الثلاثةُ هي أفضلُ بقاعِ الأرضِ حسبما ثبتَ في الصحيحينِ، وهي مكةُ والمدينةُ وبيتُ المقدسِ.

أما البيتُ الحرامُ الذي بمكةَ، فهو بيتُ إبراهيمَ - صلوات الله وسلامه عليه - أمره الله ببنائه، وأن يؤدَّنَ في الناسِ بالحجِّ إليه؛ فبناه هو وابنه إسماعيلُ كما نصَّه القرآنُ، وقام بما أمره الله فيه. وسكنَ إسماعيلُ به مع هاجرَ، ومن نزل معهم من جُزْهُمَ إلى أن قبضَهُما اللهُ، ودُفِنَا بالحجرِ منه.

وبيتُ المقدسِ بناه داودُ وسليمانُ - عليهما السلامُ - أمرهما اللهُ ببناءِ مسجديهِ ونصبِ هياكلِهِ. ودُفِنَ كثيرٌ من الأنبياءِ من وُلْدِ إِسْحَقَ - عليه السلام - حوالِيه.

والمدينةُ مهاجرُ نبيِّنا محمدٍ، - صلواتُ الله وسلامُهُ عليه - أمره اللهُ تعالى بالهجرةِ إليها وإقامةِ دينِ الإسلامِ بها؛ فبنى مسجدهُ الحرامَ بها، وكان ملحدهُ^(١) الشريفُ في تربتها.

فهذه المساجدُ الثلاثةُ قُرَّةُ عينِ المسلمينِ ومهوى أفئدتهم، وعظمةُ دينهم. وفي الآثارِ من فضيلتها ومضاعفةِ الثوابِ في مجاورتها والصلاةِ فيها كثيرٌ معروفٌ. فلنُشيرُ إلى شيءٍ من الخبرِ عن أوليَّةِ هذه المساجدِ الثلاثةِ وكيف تدرَّجتْ أحوالُها إلى أن كُمِلَ ظهورُها في العالمِ.

فأمَّا مكةُ فأوَّلِيَّتُها. فيما يُقالُ. أنَّ آدمَ - صلواتُ الله عليه - بناها قبالةَ البيتِ المعمورِ، ثم هدمَهَا الطوفانُ بعد ذلك. وليس فيه خبرٌ صحيحٌ يُعَوَّلُ عليه. وإنما اقتبسوه من مُجْمَلِ الآيَةِ في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. ثم بعثَ اللهُ إبراهيمَ، وكان من شأنه وشأنِ زوجته سارةَ وغيرتها من هاجرَ ما هو معروفٌ. وأوحى اللهُ إليه أن يتزكَّ ابنته إسماعيلَ وأُمَّه هاجرَ بالفلاة؛ فوضعهُما في مكانِ البيتِ وسارَ عنهما. وكيف جعلَ اللهُ لهما من اللطيفِ في نبعِ ماءِ زمزمَ، ومرورِ الرُّفْقَةِ من جُزْهُمَ بهما، حتى احتملوهما وسكنوا إليهما، ونزلوا معهما حوالِيِ زمزمَ كما عُرفَ في موضعه. فاتخذَ إسماعيلُ بموضعِ الكعبةِ بيتًا يأوي إليه، وأدارَ عليه سياجًا من الرِّدَمِ وجعله زربانًا^(٢) لَعَنِمِهِ. وجاءَ إبراهيمَ - صلواتُ الله عليه - مرارًا لزيارتهِ من الشامِ، أمرَ في آخرها ببناءِ الكعبةِ مكانَ ذلك الزُّربِ؛

(٢) زرباناً: حظيرة المشاة.

(١) ملحده: قبره.

فبناه واستعان فيه بابنه إسماعيل، ودعا الناس إلى حججه، وبقي إسماعيل ساكنا به. ولما قُضِيَتْ أُمُّهُ هَاجِرٌ وَقَامَ بِنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ بِأَمْرِ الْبَيْتِ مَعَ أَخْوَالِهِمْ مِنْ جُزْهُمٍ، ثُمَّ الْعَمَالِيقُ مِنْ بَعْدِهِمْ. وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ، وَالنَّاسُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ أَفْقٍ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ، لَا مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ دَنَا أَوْ نَأَى. فَقَدْ نُقِلَ أَنَّ التَّبَايَعَةَ كَانَتْ تَحُجُّ الْبَيْتَ وَتُعْظَمُهُ، وَأَنَّ تَبَعًا كَسَاهَا الْمُلَأُ وَالْوَصَائِلُ^(١)، وَأَمَرَ بِتَطْهِيرِهَا وَجَعَلَ لَهَا مِفْتَاحًا. وَنُقِلَ أَيْضًا أَنَّ الْفُرْسَ كَانَتْ تَحُجُّهُ وَتُقْرَبُ إِلَيْهِ، وَأَنَّ غَزَالِي الذَّهَبِ اللَّذِينَ وَجَدَهُمَا عَبْدُ الْمَطْلَبِ حِينَ احْتَفَرَ زَمْزَمَ كَانَا مِنْ قَرَابِينِهِمْ. وَلَمْ يَزَلْ لَجُزْهُمَ الْوِلَايَةُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ قَبْلِ حُزْوِ وَلِيِّهِمْ. حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ حُزَاعَةُ وَأَقَامُوا بِهَا بَعْدَهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ. ثُمَّ كَثُرَ وُلْدُ إِسْمَاعِيلَ وَانْتَشَرُوا وَتَشَعَّبُوا إِلَى كِنَانَتِهِ، ثُمَّ كِنَانَتُهُ إِلَى قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ. وَسَاءَتْ وَلَايَةُ حُزَاعَةَ فغلبتهم قُرَيْشٌ عَلَى أَمْرِهِ. وَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ الْبَيْتِ وَمَلَكُوا عَلَيْهِمْ يَوْمئِذٍ، فَصَيَّ بَنَ كِلَابٍ^(٢)، فَبَنَى الْبَيْتَ وَسَقَفَهُ بِخَشَبِ الدَّوْمِ وَجَرِيدِ التَّحْلِ. وَقَالَ الْأَعْمَشِيُّ:

خَلَفْتُ بِثَوْبِي رَاهِبَ الدَّوْرِ وَالتِّي بَنَاهَا قَصِيَّ وَالمَضَاضُ بَنُ جُزْهُمِ

ثُمَّ أَصَابَ الْبَيْتَ سَيْلٌ، وَيُقَالُ حَرِيقٌ وَتَهْدَمٌ، وَأَعَادُوا بِنَاءَهُ وَجَمَعُوا التَّفَقَّةَ لِذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ. وَانْكَسَرَتْ سَفِينَةٌ بِسَاحِلِ جُدَّةَ فَاشْتَرَوْا خَشْبَهَا لِلسَّقْفِ. وَكَانَتْ جُدْرَانُهُ فَوْقَ الْقَامَةِ؛ فَجَعَلُوهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا. وَكَانَ الْبَابُ لَاصِقًا بِالْأَرْضِ فَجَعَلُوهُ فَوْقَ الْقَامَةِ لِئَلَّا تَدْخُلَهُ الشَّيُولُ. وَقَصَّرَتْ بِهِمُ التَّفَقَّةُ عَنْ إِتْمَامِهِ فَقَصَّرُوا عَنْ قَوَاعِدِهِ وَتَرَكَوا مِنْهُ سِتَّةَ أَذْرَعٍ وَشَبْرًا أَدَارُوهَا بِجِدَارٍ قَصِيرٍ، يَصَافُ مِنْ وَرَائِهِ، وَهُوَ الْحِجْرُ. وَبَقِيَ الْبَيْتُ عَلَى هَذَا الْبِنَاءِ إِلَى أَنْ تَحَصَّنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ حِينَ دَعَا لِنَفْسِهِ، وَزَحَفَتْ إِلَيْهِ جِيوشُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ مَعَ الْحُصَيْنِ بْنِ نُمَيْرِ الشُّكُونِيِّ. وَرُمِيَ الْبَيْتُ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ فَأَصَابَهُ حَرِيقٌ. يُقَالُ مِنَ التَّفَطِّ الَّذِي رَمَوْا بِهِ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ فَتَصَدَّعَتْ حَيْطَانُهُ؛ فَهَدَمَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ؛ وَأَعَادَ بِنَاءَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ، بَعْدَ أَنْ اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ فِي بِنَائِهِ. وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِكُفْرِ لَرَدَدْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ: شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا»^(٣). فَهَدَمَهُ وَكَشَفَ عَنْ أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَجَمَعَ الْوُجُوهَ

(١) نوع من الستائر.

(٢) هو: قُصَيُّ بْنُ كِلَابِ بْنِ مَرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَهُوَ الْأَبُ الْخَامِسُ فِي سِلْسِلَةِ النَّسَبِ النَّبَوِيِّ، مِنْ سَادَةِ قُرَيْشٍ. وَوَلِيَّ أَمْرِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَهَدَمَ الْكَمْبَةَ وَجَدَّدَ بِنْيَانَهَا.

(٣) البخاري في العلم برقم (١٢٦).

والأكابر حتى عاينوه. وأشار عليه ابن عباس بالتحري في حفظ القبلة على الناس؛ فأدار على الأساس الخشب، ونصب من فوقها الأستار حفظاً للقبلة. وبعث إلى صنعاء في الفضة والكلس، فحملها وسأل عن قطع الحجارة الأول؛ فجمع منها ما احتاج إليه. ثم شرع في البناء على أساس إبراهيم - عليه السلام - ورفع جدرانها سبعا وعشرين ذراعاً، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض كما روى في حديثه. وجعل فزئها وأزرها بالرخام، وصاغ لها المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب.

ثم جاء الحجاج لحصاره أيام عبد الملك ورمى على المسجد بالمنجنيقات إلى تصدعت حيطانه. ثم لما ظفر بآب الزبير شاوَر عبد الملك فيما بناه وزاده في البيت؛ فأمره بهدمه ورد البيت على قواعد فريش كما هي اليوم. ويقال: إنه ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة، وقال: وددت أني كنت حملت أبا حبيب من أمر البيت وبنائه ما تحمّل؛ فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشيئاً مكان الحجر، وبنها على أساس فريش، وسد الباب الغربي وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقي. وترك سائرهما لم يغير منه شيئاً. فكل البناء الذي فيه اليوم بناء الزبير. وبين بنائه وبناء الحجاج في الحائط، صلة ظاهرة للعيان؛ لحة ظاهرة بين البناءين. والبناء متميز عن البناء بمقدار إصبع، شبه الصدع وقد لجم.

ويعرض هنا إشكال قوي لمنافاته لما يقوله الفقهاء في أمر الطواف. ويحذر الطائف أن يميل على الشاذروان^(١) الدائر على أساس الجدر من أسفلها، فيقع طوافه داخل البيت بناء على أن الجدار إنما قام على بعض الأساس وترك بعضه، وهو مكان الشاذروان. وكذا قالوا في تقبيل الحجر الأسود، لا بد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوي قائماً؛ لئلا يقع بعض طوافه داخل البيت. وإذا كانت الجدران كلها من بناء ابن الزبير، وهو إنما بُني على أساس إبراهيم، فكيف يقع هذا الذي قالوه؟ ولا مخلص من هذا إلا بأحد أمرين: إما أن يكون الحجاج هدمه جميعه وأعاد، وقد نقل ذلك جماعة، إلا أن العيان في شواهد البناء بالتحام ما بين البناءين وتمييز أحد الشقين من أعلاه عن الآخر في الصنعة يرد ذلك؛ وإما أن يكون ابن الزبير لم يرد البيت على أساس إبراهيم من جميع جهاته، وإنما فعل ذلك في الحجر فقط ليدخله. فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد إبراهيم. وهذا بعيد، ولا محيص من هذين. والله تعالى أعلم.

(١) الشاذروان: حُرُز يُسَدُّ على الجدران للتجميل.

ثم إنَّ ساحةَ البيتِ، وهو المسجدُ، كان فضاءً للطائفتين؛ ولم يكن عليه جدًّا أَيْامَ النَّبِيِّ ﷺ وأبي بكرٍ من بعده. ثم كثرَ النَّاسُ، فاشترى عُمرُ - رضي الله عنه - دورًا هدمها وزادها في المسجدِ، وأدار عليها جدارًا دون القامةِ. وفعلَ مثلَ ذلك عثمانُ، ثم ابنُ الزُّبيرِ، ثم الوليدُ ابنُ عبدِ الملكِ. وبناه بعُمُدِ الرُّخامِ. ثم زادَ فيه المنصورُ وابنه المهديُّ من بعده ووقفت الزيادةُ واستقرَّت على ذلك لعهدنا.

وتشريفُ الله لهذا البيتِ وعنايتهُ به أكثرُ من أن يُحاطَ به. وكفى من ذلك أن جعله مهبطًا للوحيِّ والملائكةِ ومكانًا للعبادةِ، وفرضَ شعائرَ الحجِّ ومناسكِهِ. وأوجبَ لِحْرَمِهِ من سائرِ نواحيه من حقوقِ التعظيمِ والحقِّ ما لم يوجِبُهُ لغيره، فمَنعَ كلَّ من خالفَ دينَ الإسلامِ من دخولِ ذلك الحريمِ. وأوجبَ على داخلِهِ أن يتجرَّدَ من المخيطِ إلا إزارًا يسترهُ. وحمى العائذَ به والرَّايغَ (١) في مسارجهِ من مواقعِ الآفاتِ؛ فلا يُرَاعَ فيه خائفٌ ولا يُصَادَ له وحشٌ ولا يُحتطَبُ له شجرٌ. وحدُّ الحَرَمِ الذي يختصُّ بهذه الحُرمةِ من طريقِ المدينةِ ثلاثةُ أميالٍ إلى التَّنْعِيمِ؛ ومن طريقِ العراقِ سبعةُ أميالٍ إلى الثَّنِيَّةِ من جبلِ المُنْقَطِعِ؛ ومن طريقِ الجِعْرانةِ تسعةُ أميالٍ إلى الشُّعْبِ، ومن طريقِ الطَّائِفِ سبعةُ أميالٍ إلى بطنِ نَمْرَةَ؛ ومن طريقِ جُدَّةِ سبعةُ أميالٍ إلى منقَطِعِ العَشَائِرِ.

هذا شأنُ مَكَّةَ وخبرها وتُسَمَّى أُمُّ الْقُرَى، وتُسَمَّى الكعبةَ لعلوها من اسمِ الكعبِ، ويقالُ لها أيضًا بَكَّةَ. قال الأصمعيُّ: لأنَّ النَّاسَ يَبْكُ بعضهم بعضًا إليها أي يدفَعُ. وقال مجاهدٌ: إنما هي بَاءُ بَكَّةَ أبدلوا ميمًا، كما قالوا: لازبٌ ولازمٌ لقربِ المخرجين. وقال النَّخعيُّ: بالبَاءِ للبيتِ وبالميمِ للبلدِ. وقال الزُّهريُّ: بالبَاءِ للمسجدِ كُلِّه وبالميمِ للحرمِ. وقد كانت الأُممُ منذ عهدِ الجاهليَّةِ تُعظِّمُهُ، والملوكُ تبعثُ إليه بالأموالِ والذخائرِ مثل كسرى وغيره.

وقِصَّةُ الأسيافِ وغزاليِّ الذهبِ اللدِّينِ وجدَّهما عبدُ المطلبِ حين احتَفَرَ زمزمَ مَعْرُوفَةً. وقد وجدَ رسولُ الله ﷺ، حين افتتَحَ مَكَّةَ في الجُبِّ الذي كانَ فيها سبعينَ ألفَ أوقيةٍ من الذهبِ، مما كان الملوكُ يُهدونَ للبيتِ؛ قيمتها ألفُ ألفِ دينارٍ مكرَّرةً مرَّتينِ بمائتي قِنطارٍ وزنًا. وقال له عليُّ بنُ أبي طالبٍ - رضي الله عنه -: يا رسولَ الله! لو استعنتَ بهذا المالِ

(١) العائذ: اللاجئ إليه، والمعتمَص به. الراتع: أي الناعم في ذلك المكان.

على حربك؛ فلم يفعل. ثم ذكر لأبي بكر؛ قلم يُحرّكه. هكذا قال الأزرقي. وفي البخاري بسنده إلى أبي وائل قال: جلستُ إلى شيبَةَ بنِ عثمان، وقال جلسَ إليَّ عمرُ بنُ الخطابِ فقال: هممتُ أن لا أدعَ فيها صفراءَ ولا بيضاءَ إلاّ قسمتها بين المسلمين. قلتُ ما أنتُ بفاعلٍ؟ قال: ولم؟ قلتُ: فلم يفعله صاحبك. فقال: «هما اللذان يُقتدى بهما»^(١). وخرجه أبو داودَ وابنُ ماجّة، وأقامَ ذلك المالَ إلى أن كانت فتنةُ الأفتس، وهو الحسنُ بنُ الحسينِ ابنِ عليّ زين العابدين سنةَ تسعٍ وتسعينَ ومائة، حينَ غلبَ على مكةَ عمَدَ إلى الكعبةِ فأخذَ ما في خزائنها وقال: ما تصنعُ الكعبةُ بهذا المالِ موضوعًا فيها لا يُنتفعُ به؟ نحنُ أحقُّ به نستعينُ به على حربنا، وأخرجهُ وتصرّفَ فيه وبطلت الذخيرةُ من الكعبةِ من يومئذ.

وأما بيتُ المقدسِ وهو المسجدُ الأقصى فكان، أوّلَ أمره أيامَ الصابئة. ^(٢) موضعًا لهيكلِ الرّهرة، وكانوا يُقرّبونَ إليه الزيتَ فيما يُقرّبونهُ، ويصُبّونهُ على الصخرةِ التي هناك. ثم دُيّرَ ذلك الهيكلُ، واتخذها بنو إسرائيلَ حينَ ملكوها قبلةً لصلاتهم. وذلك أن موسى - صلواتُ الله عليه - لما خرَجَ ببني إسرائيلَ من مِصرَ لتمليكهم بيتَ المقدسِ، كما وعدَ اللهُ أباهم إسرائيلَ وأباهُ إسحقَ، ويعقوبَ من قبله، وأقاموا بأرضِ التّيه؛ أمرهُ اللهُ باتخاذِ قُبّةٍ من خَشَبِ السَّنِيطِ عُيِّنَ بالوحي مقدارُها وصِفَتُها وهياكلُها وتمائيلُها، وأن يكونَ فيها التّابوتُ ومائدةُ بصحافِها ومنارةٌ بقناديلِها، وأن يصنعَ مذبحًا للقرّبانِ، وُصِفَ ذلك كُلُّه في التّوراةِ أكملَ وصفٍ فصنعَ القُبّةَ ووضعَ فيها تابوتَ العهدِ، وهو التّابوتُ الذي فيه الألواحُ المصنوعةُ عوضًا عن الألواحِ المنزلةِ بالكلماتِ العشرِ، لما تكشّرت ووضِعَ المذبحُ عندها.

وعهدَ اللهُ إلى موسى بأن يكونَ هارونُ صاحبَ القرّبانِ، ونصبوا تلكَ القُبّةَ بين خيامهم في التّيهِ يُصلّونَ إليها ويُقرّبونَ في المذبحِ أمامها، ويتعرّضونَ للوحي عندها. ولما ملكوا أرضَ الشّامِ أنزلوها بكلكال من بلادِ الأرضِ المقدّسةِ ما بين قِسمِ بني يامينِ وبني أفرائيم. وبقيت هنالك أربعَ عشرةَ سنة: سبعاَ مدّةَ الحرب؛ وسبعاَ بعد الفتحِ أيامَ قِسْمَةِ البلادِ. ولما توفّي يوشع - عليه السّلام - نقلوها إلى بلدِ شيلو قريبتا من كلكال، وأداروا عليها الحيطان. وأقامت على ذلك ثلاثمائةَ سنة، حتى ملكها بنو فلسطين من أيديهم كما مرّ، وتغلبوا عليهم. ثم ردّوا عليهم القُبّةَ ونقلوها بعد وفاةِ عالي الكوهنِ إلى نوف. ثم نُقلتْ أيامَ طالوتِ إلى كنعانِ في بلادِ بني يامين. ولما ملك داودُ - عليه السّلام - نقلَ القُبّةَ والتّابوتِ إلى بيت

(٢) الصابئة: جماعة كانت تعبد النجوم.

(١) أحمد في المسند برقم (١٥٣٦٠).

المقدس وجعل عليها حِباءً خاصًا ووضعها على الصخرة .

وبقيت تلك القبة قبلتهم، ووضعوها على الصخرة بيت المقدس، وأراد داود - عليه السلام - بناء مسجده على الصخرة مكانها؛ فلم يتم له ذلك، وعهد به إلى ابنه سليمان فبناه لأربع سنين من ملكه، ولخمسائة سنة من وفاة موسى - عليه السلام - . واتخذ عمده من الصفر^(١) وجعل به صرح الزجاج وغشى أبوابه وحيطانه بالذهب، وصاغ هياكله وتمائله وأوعيته ومنازته ومفتاحه من الذهب، وجعل في ظهره قبراً ليضع فيه تابوت العهد، وهو التابوت الذي فيه الألواح. وجاء به من صهيون بلد أبيه داود نقله إليها أيام عمارة المسجد؛ فيجيء به تحمله الأشباط والكهنوتية حتى وضعه في القبر، ووضعت القبة والأوعية والمذبح، كل واحد حيث أُعد له من المسجد. وأقام كذلك ما شاء الله . ثم خرّبه بختنصر بعد ثمانمائة سنة من بنيه، وأحرق التوراة والعصا، وصاغ الهياكل ونثر الأحجار .

ثم لما أعادهم ملوك الفرس بناءه عزير نبي إسرائيل لعنده، بإعانة بهمن ملك الفرس، الذي كانت الولادة لبني إسرائيل عليه من سبي بختنصر. وحد لهم في بنيانه حدوداً دون بناء سليمان بن داود - عليهما السلام - فلم يتجاوزهما .

وأما الأواوين^(٢) التي تحت المسجد، يركب بعضها بعضاً؛ عمود الأعلى منها على قوس الأسفل في طبقتين. ويتوهم كثير من الناس أنها إصطبلات سليمان - عليه السلام - وليس كذلك. وإنما بناها تنزيهاً للبيت المقدس عما يتوهم من التجاسة؛ لأن التجاسات في شريعتهم، وإن كانت في باطن الأرض، وكان ما بينها وبين ظاهر الأرض محشواً بالتراب، بحيث يصل ما بينها وبين الظاهر خط مستقيم ينجس ذلك الظاهر بالتوهم، والمتوهم عندهم كالمحقق؛ فبنوا هذه الأواوين على هذه الصورة بعمود الأواوين السفلية تنتهي إلى أقواسها وينقطع خطه، فلا تتصل التجاسة بالأعلى على خط مستقيم. وتنزه البيت عن هذه التجاسة المتوهمة ليكون ذلك أبلغ في الطهارة والتقديس .

ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس والروم. واستفحل الملك لبني إسرائيل في هذه المدة: لبني حشمناي من كهنتهم، ثم لصهرهم هيرودس ولبنيه من بعده. وبني هيرودس بيت المقدس على بناء سليمان - عليه السلام - وتأنق فيه حتى أكمله في ست سنين . فلما جاء

(٢) أواوين : جمع إوان ، وهو الصفة العظيمة .

(١) الصفر : النحاس .

طيطش من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم حرب بيت المقدس ومسجدها، وأمر أن يزرع مكانه. ثم أخذ الروم بدين المسيح - عليه السلام - ودانوا بتعظيمه. ثم اختلف حال ملوك الروم في الأخذ بدين النصرانية تارة وتركه أخرى، إلى أن جاء قسطنطين وتنصرت أمه هيلانة، وارتحلت إلى القدس في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم؛ فأخبرها القمامصة بأنه رمي بخشبيته على الأرض، وألقي عليها القمامات والقاذورات. فاستخرجت الخشبة، وبنيت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة كأنها على قبرة بزعمهم، وحزبت ما وجدت من عمارة البيت، وأمرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة، حتى غطاها وخفي مكانها جزاء بزعمها عما فعلوه بقبر المسيح.

ثم بنوا بإزاء القمامة بيت لحم، وهو البيت الذي ولد فيه عيسى - عليه السلام - وبقي الأمر كذلك إلى أن جاء الإسلام والفتح، وحضر عمر لفتح بيت المقدس، وسأل عن الصخرة فأري مكانها وقد علاها الزبل والتراب، فكشف عنها وبنى عليها مسجداً على طريق البداوة. وعظم من شأنه ما أذن الله من تعظيمه، وما سبق من أم الكتاب في فضله حسبما ثبت

ثم احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجده، على سنين مساجد الإسلام بما شاء الله من الاحتفال، كما فعل في المسجد الحرام وفي مسجد النبي ﷺ بالمدينة. وفي مسجد دمشق، وكانت العرب تسميه بلاط الوليد. وألزم ملك الروم أن يعث الفعله والمال لبناء هذه المساجد، وأن ينمقوها بالفسيفساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه.

ثم لما ضعف أمر الخلافة أعوام الخمسمائة من الهجرة في آخرها، وكانت في ملكة العبيدين خلفاء القاهرة من الشيعة واحتل أمرهم، زحف الفرنجة إلى بيت المقدس، فملكوه وملكوا معه عامة ثغور الشام. وبنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة يُعظمونها ويفتخرون ببنائها، حتى إذا استقله صلاح الدين بن أيوب الكردي بملك مصر والشام، ومحا أثر العبيدين وبدعهم زحف إلى الشام وجاهد من كان به من الفرنجة، حتى غلبهم على بيت المقدس، وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشام، وذلك لنحو ثمانين وخمسمائة من الهجرة. وهدم تلك الكنيسة وأظهر الصخرة وبنى المسجد على التحو الذي هو عليه اليوم لهذا العهد.

ولا يعرض لك الإشكال المعروف في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ سُئِلَ عن أول بيت وضع؛ فقال: مكة. قيل: ثم أي؟ قال: بيت المقدس، قيل: فكم بينهما؟ قال: أربعون سنة.

فإنَّ المدَّةَ بين بناءِ مكةَ وبين بناءِ بيتِ المقدسِ، بمقدارِ ما بين إبراهيمَ وسليمانَ. لأنَّ سليمانَ بانيه، وهو ينيفُ^(١) على الألفِ بكثيرٍ.

واعلم أنَّ المرادَ بالوضعِ في الحديثِ، ليس البناءُ، وإنما المرادُ أوَّلَ بيتِ عُيُنَ للعبادةِ. ولا يبعدُ أن يكونَ بيتُ المقدسِ عُيُنَ للعبادةِ قبلَ بناءِ سليمانَ بمثلِ هذه المدَّةِ. وقد نُقِلَ أنَّ الصَّابئةَ بنوا على الصَّخرةِ هيكلَ الزُّهرةِ؛ ففعلوا ذلكَ لأنها كانتَ مكاناً للعبادةِ، كما كانتَ الجاهليَّةُ تضعُ الأصنامَ والتماثيلَ حوالي الكعبةِ وفي جوفها. والصَّابئةُ الذين بنوا هيكلَ الزُّهرةِ كانوا على عهدِ إبراهيمَ - عليه السَّلامُ - فلا تبتعدُ مدَّةُ الأربعينَ سنةً بين وضعِ مكةَ للعبادةِ ووضعِ بيتِ المقدسِ، وإن لم يكنْ هناكَ بناءً كما هو المعروفُ. وإنَّ أوَّلَ مَنْ بنى بيتَ المقدسِ سليمانُ - عليه السَّلامُ - فتفهَّمهُ ففيه حلُّ هذا الإشكالِ.

وأما المدينةُ المنوَّرةُ - وهي المسمَّاةُ بيثربَ - فهي من بناءِ يثربِ بنِ مهلائلَ من العماليقِ وبه سُمِّيت. وملكها بنو إسرائيلَ من أيديهم فيما ملكوه من أرضِ الحجازِ. ثم جاورهم بنو قليَّةٍ من غسانَ وغلَّبوهم عليها وعلى حُصونها. ثم أمرَ النبيُّ ﷺ بالهجرةِ إليها، لما سبقَ من عنايةِ الله بها؛ فهاجر إليها معه أبو بكرٍ وتبعه أصحابه ونزلَ بها وبنى مسجدهُ وبيوتهُ في الموضعِ الذي كان الله قد أعدَّه لذلك وشرفه في سابقِ أزله. وآواهُ أبناءُ قيلةٍ ونصروه؛ فلذلك سُمِّوا الأنصارَ. وتمت كلمةُ الإسلامِ من المدينةِ حتى علت على الكلماتِ وغلَّب على قومه وفتحَ مكةَ وملكها. وظنَّ الأنصارُ أنه يتحوَّلُ عنهم إلى بلدهِ فأهَمَّهُم ذلك، فخطبهم رسولُ الله ﷺ وأخبرهم أنه غيرُ مُتحوِّلٍ. حتى إذا قبضَ ﷺ كان ملحدُهُ الشَّريفُ بها. وجاء في فضلها من الأحاديثِ الصَّحيحةِ ما لا خفاءَ به. ووقع الخلافُ بين العلماءِ في تفضيلها على مكةَ، وبه قال مالكٌ رحمه الله، لما ثبتَ عنده في ذلك من النَّصِّ الصَّريحِ عن رافعِ بنِ خديجٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «المدينةُ خيرٌ من مكةَ». نقل ذلك عبدُ الوهَّابِ في «المعونة»، إلى أحاديثٍ أخرى تدلُّ بظاهرها على ذلك. وخالف أبو حنيفةُ والشَّافعيُّ.

وأصبحت على كلِّ حالٍ ثانيةً المسجدِ الحرامِ. وجنح إليها الأُممُ بأفئدتهم من كلِّ أوبٍ^(٢). فانظر كيف تدرَّجت الفضيلةُ في هذه المساجدِ المعظَّمةِ، لما سبقَ من عنايةِ الله لها، وتفهم سرَّ الله في الكونِ وتدرُّجهِ على ترتيبِ محكمٍ في أمورِ الدِّينِ والدُّنيا.

(٢) أي من كلِّ مكان.

(١) ينيف: يزيد.

وَأَمَّا غَيْرُ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ فَلَا نَعْلَمُهُ فِي الْأَرْضِ، إِلَّا مَا يُقَالُ مِنْ شَأْنِ مَسْجِدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَرَنْدِيبَ مِنْ جَزَائِرِ الْهِنْدِ. لَكِنَّهُ لَمْ يَنْبُثْ فِيهِ شَيْءٌ يُعْرَوُ عَلَيْهِ.

وَقَدْ كَانَتْ لِلْأُمَّمِ فِي الْقَدِيمِ مَسَاجِدُ يَعْظُمُونَهَا عَلَى جِهَةِ الدِّيَانَةِ بَرَعِيهِمْ. مِنْهَا بِيُوثُ النَّارِ لِلْفَرَسِ وَهِيَائِكُلُ يُونَانَ وَبِيُوثُ الْعَرَبِ بِالْحِجَازِ، الَّتِي أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَدْمِهَا فِي غَزْوَاتِهِ. وَقَدْ ذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ مِنْهَا بِيُوثًا لَسْنَا مِنْ ذِكْرِهَا فِي شَيْءٍ، إِذْ هِيَ غَيْرُ مَشْرُوعَةٍ وَلَا هِيَ عَلَى طَرِيقِ دِينِي، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا وَلَا إِلَى الْخَبِيرِ عَنْهَا. وَبِكُفْيِ فِي ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي التَّوَارِيخِ. فَمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ الْأَخْبَارِ. فَعَلَيْهِ بِهَا. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢١٣] شُبْحَانَهُ.

فصل السابع

في أن المدن والأصهار بإفريقية والمغرب قليلة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَقْطَارَ كَانَتْ لِلْبَرَبْرِ مِنْذُ آلَافٍ مِنَ السَّنِينَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ عُمرَانُهَا كُلُّهُ بَدَوِيًّا، وَلَمْ تَسْتَجِرْ فِيهِمُ الْحَضَارَةُ حَتَّى تُسْتَكْمَلَ أَحْوَالُهَا. وَالذَّوْلُ الَّتِي مَلَكَتْهُمْ مِنَ الْإِفْرَنْجَةِ وَالْعَرَبِ لَمْ يَطَّلِ أَمْدُ مُلْكِهِمْ فِيهِمْ، حَتَّى تَرَسَّخَ الْحَضَارَةُ مِنْهَا؛ فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ الْبَدَاوَةِ وَشُؤُونُهَا، فَكَانُوا إِلَيْهَا أَقْرَبَ، فَلَمْ تَكْتَرِ مَبَانِيهِمْ. وَأَيْضًا الْجِدْقُ فِي تَعْلَمِهَا. فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلْبَرَبْرِ انْتِحَالٌ لَهَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ تَشَوُّفٌ إِلَى الْمَبَانِي فَضْلًا عَنِ الْمُدُنِ. وَأَيْضًا فَهْمُ أَهْلِ عَصِيَّاتٍ وَأَنْسَابٍ لَا يَخْلُو عَنْ ذَلِكَ جَمْعٌ مِنْهُمْ. وَالْأَنْسَابُ وَالْعَصِيَّةُ أَجَنَحٌ إِلَى الْبَدْوِ.

وَإِنَّمَا يَدْعُو إِلَى الْمَدِينِ الدَّعَةُ وَالسَّكُونُ، وَيَصِيرُ سَاكِنُهَا عِيَالًا عَلَى حَامِيَّتِهَا؛ فَتَجِدُ أَهْلَ الْبَدْوِ لِذَلِكَ يَسْتَنْكِفُونَ عَنِ سُكْنَى الْمَدِينَةِ أَوْ الْإِقَامَةِ بِهَا. وَلَا يَدْعُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا التَّرَفُّ وَالغِنَى؛ وَقَلِيلٌ مَا هُوَ فِي النَّاسِ. فَلِذَلِكَ كَانَ عُمرَانُ إِفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ كُلَّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ بَدَوِيًّا، أَهْلَ خِيَامٍ وَظَوَاعِنَ وَقِيَاظِرَ وَكُنُنٍ^(١) فِي الْجِبَالِ. وَكَانَ عُمرَانُ بِلَادِ الْعَجَمِ كُلَّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ قَوِيًّا وَأَمْصَارًا وَرَسَاتِيقَ^(٢)، مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَعِرَاقِ الْعَجَمِ وَأَمْثَالِهَا، لِأَنَّ الْعَجَمَ فِي الْغَالِبِ لَيْسُوا بِأَهْلِ أَنْسَابٍ يُحَافِظُونَ عَلَيْهَا وَيَتَنَاعَوْنَ فِي صُرَاخَتِهَا وَالتَّحَامِيهَا إِلَّا فِي الْأَقْلِ.

(١) الظواعن: الرُّجُل. قياطن: قاطنون. والكنن: المستقرون في سكاكنهم.

(٢) رساتيق: ولايات.

وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل الأنساب، لأنَّ لُحمة النَّسَبِ أقرب وأشدُّ. فتكون عصبية كذلك، وتنزَعُ بصاحبها إلى سكنى البدو والتجافي عن المصر الذي يذهب بالبسالة ويصيِّره عيالاً على غيره؛ فافهمه وقرن عليه. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

لفصل الثامن

في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول

والسبب في ذلك ما ذكرنا مثله في البربر بعينه، إذ العرب أيضاً أعزق في البدو وأبعد عن الصنائع. وأيضاً فكانوا أجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الإسلام. ولما تملكوها لم يفسح الأمد حتى تستوفي رسوم الحضارة، مع أنهم استغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم. وأيضاً فكان الدين أول الأمر مانعاً من المغالاة في البنين والإسراف فيه في غير القصد، كما عهد لهم عمر حين استأذونه في بناء الكوفة بالحجارة، وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل، فقال: افعلوا، ولا يزيدن أحد على ثلاثة أيات. ولا تطاولوا في البنين، والزمو السنة تلزمكم الدولة. وعهد إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بُنياناً فوق القدر. قالوا: وما القدر؟ قال: ما لا يُقرَّبكم من السرف ولا يُخرِجكم عن القصد. فلما بعد العهد بالدين والتحرُّج في أمثال هذه المقاصد، وغلبت طبيعة الملك والترف، واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمباني، ودعتهم إليها أحوال الدعة والترف؛ فحينئذ شيدوا المباني والمصانع، وكان عهد ذلك قريباً بانقراض الدولة، ولم يفسح الأمد لكثرة البناء واختطاط المدن والأمصار إلا قليلاً؛ وليس كذلك غيرهم من الأمم. فالفرس طالت مدتهم آفاقاً من السنين وكذلك القبط والنبط والروم، وكذلك العرب الأولى من عاد وثمود والعمالق والتبابعة، طالت أمادهم ورسخت الصنائع فيهم؛ فكانت مبانيهم وهياكلهم أكثر عددًا وأبقى على الأيام أثراً. واستبصر في هذا تجده كما قلت لك. والله وارث الأرض ومن عليها.

الفصل التاسع

في أن المباني التي كانت تُحطَّرُها
العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل

والسبب في ذلك شأنُ البِدَاوَةِ والبُعْدِ عن الصَّنَائِعِ كما قدَّمناه، فلا تكون المباني وثيقةً في تشييدها. وله - والله أعلم - وجهٌ آخرٌ وهو أمْسٌ به، وذلك قِلَّةُ مراعاتهم لِحُسْنِ الاختيارِ في اختِطاطِ المُدُنِ كما قلناه: من المَكَانِ وطيبِ الهَوَاءِ والمِيَاهِ والمَزَارِعِ والمِراعي؛ فَإِنَّه بالتفاوتِ في هذه تتفاوتُ جودَةُ المِضْرِ وِرداءَتُهُ من حيثُ العُمُرَانُ الطَّبِيعِيُّ. والعربُ بمعزلٍ عن هذا؛ وإنما يُراعونَ مراعي إِبْلِهِمْ خاصَّةً، لا يبالونَ بالماءِ طابَ أو خَبِثَ، ولا قَلَّ أو كَثُرَ، ولا يسألونَ عن زكاءِ المزارعِ والمنايِبِ والأهويَّةِ لانتقالهم في الأرض، ونقلهم الحبوب من البلدِ البعيد.

وأما الرِّياحُ فالقفرُ مختلفٌ للمهابِّ كُلِّها. والظعنُ كَفِيْلٌ لهم بطبيعتها لأنَّ الرِّياحَ إِنَّمَا تَحْبُثُ مع القَرارِ والشُّكْنى وكثرةِ الفَضَلاتِ. وانظر لما اختطَّطوا الكوفةَ والبصرةَ والقيروانَ، كيف لم يُراعوا في اختِطاطِها إلى مراعي إِبْلِهِمْ. وما يقربُ من القفرِ ومسالكِ الظَّعنِ؛ فكانت بعيدةً عن الوضعِ الطَّبِيعِيِّ للمُدُنِ، ولم تكن لها مادَّةٌ تمدُّ عمرانها من بعدهم، كما قدَّمنا بأنَّه يُحتاجُ إليه في حِفْظِ العُمُرانِ. فقد كانت مواطنها غيرَ طبيعيَّةٍ للقَرارِ، ولم تكن في وسطِ الأُممِ فيعْمُرُها النَّاسُ. فلاوَّلُ وهلةٌ من انحلالِ أمرهم وذهابِ عصبِيَّتِهِم التي كانت سياجًا لها، أتى عليها الخرابُ والانحلالُ كأنَّ لم تكن. ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرعد: ٤١].



لفصل العاشر

في سبأى الخراب في الأرمصار

اعلم أنَّ الأرمصارَ إذا اختطَّتْ أوْلاً تكونُ قليلةَ المساكنِ، وقليلةَ آلاتِ البناءِ، من الحجَرِ والجيرِ وغيرهما مما يُعالى على الحيطانِ عند التَّائِقِ: كالزُّلجِ والرُّخامِ والرُّبجِ والرُّجاجِ والفُسيفَساءِ والصَّدْفِ؛ فيكونُ بناؤها يومئذٍ بَدَوِيًّا وآلئها فاسدةً. فإذا عَظُمَ عُمرانُ المدينةِ وكَثُرَ ساكنُها كَثُرَتِ الآلاتُ بكثرةِ الأعمالِ حينئذٍ، وكَثُرَ الصَّنَائِعُ إلى أن تَبْلُغَ غايتها من ذلك كما سبقَ بِشأنِها. فإذا تراجَعَ عُمرانها وخَفَّ ساكنُها قَلَّتِ الصَّنَائِعُ لأجل ذلك فَفَقِدَتِ الإِجَادَةَ في البناءِ والإِحْكَامَ والمَعَالَةَ عليه بالتَّئِمِيقِ. ثم تَقِلُّ الأعمالُ لعدمِ السَّاكنِ فيقلُّ جَلْبُ الآلاتِ من الحجَرِ والرُّخامِ وغيرهما فَتُفْقَدُ ويصيرُ بناؤهم وتشييدُهم من الآلاتِ التي في مبانِيهم؛ فينقلونها من مصنعٍ إلى مصنعٍ، لأجلِ خِلاءِ أَكْثَرِ المِصانِعِ والقُصُورِ والمنازِلِ لِإِقْلَةِ العُمرانِ، وقُصُورِهِ عَمَّا كانَ أوْلاً. ثم لا تَزَالُ تُنْقَلُ من قِصْرِ إلى قِصْرِ ومن دارٍ إلى دارٍ إلى أن يُفْقَدَ الكَثِيرُ منها جَمَلَةً؛ فيعودون إلى البِداوَةِ في البناءِ واتخاذِ الطُّوبِ عوضاً عن الحجارةِ، والقُصُورِ عن التَّئِمِيقِ بالكليةِ. فيعودُ بناءُ المدينةِ مِثْلَ بناءِ القُرى والمَدَرِ، ويظهرُ عليها سِما البِداوَةِ. ثم تمرُّ في التَّنَاقُصِ إلى غايتها من الخرابِ إن قُدِّرَ لها به. سُنَّةُ اللهِ في خلقه.

لفصل الحادي عشر

في أن نفاضل الأرمصار والدرن في كثرة الرفه لأهلها ونفاض الأسواق إنما هو في نفاضل عمرانها في الكثرة ولقلة

والسببُ في ذلك أنه قد عُرِفَ وثبَتَ أنَّ الواحدَ من البَشَرِ غيرُ مستقيلٌ بتحصيل حاجاتِهِ في معاشِهِ، وأنهم متعاونونٌ جميعاً في عُمرانهم على ذلك. والحاجةُ التي تحصلُ بتعاونٍ طائفةٍ منهم تَسُدُّ ضرورةَ الأكثرِ من عدهم أضعافاً. فالقوتُ من الحنطةِ مثلاً لا يستقلُّ الواحدُ

بتحصيل حصّته منه. وإذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حدّادٍ ونجّارٍ للآلات، وقائم على البقرِ وإثارة الأرض وحصادِ الشُّبُلِ وسائر مؤنِّ الفلج، وتوزَّعوا على تلك الأعمالِ أو اجتمعوا، وحصلَ بعملهم ذلك مقدارًا من القوتِ؛ فإنه حينئذٍ قوتٌ لأضعافهم مرّات. فالأعمالُ بعد الاجتماعِ زائدةٌ على حاجاتِ العاملينِ وضروراتهم.

وأهلُ مدينةٍ أو مصرٍ إذا وزعتِ أعمالُهم كلها على مقدارِ ضروراتهم وحاجاتهم اكتفي فيها بالأقلِّ من تلك الأعمالِ وبقيت الأعمالُ كلها زائدةً على الضرورات فتصرف في حالات الترفِ وعوائده وما يحتاج إليه غيرهم من أهلِ الأمصارِ ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه فيكون لهم بذلك حظًا من الغنى وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرزق أنّ المكاسب إنّما هي قيم الأعمالِ فإذا كثرت الأعمالُ كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبتهم ضرورةً، ودعتهم أحوالُ الرفه والغنى إلى الترفِ وحاجاته من التأنق في المساكن والملابس واستجادة الآتية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب، وهذه كلها أعمالٌ تُستدعى بقيمتها ويختار المَهْرَةُ في صناعتها والقيام عليها فتنفق أشواق الأعمالِ والصنائع ويكثر دخل المصّر وخرجه، ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل أعمالهم. ومتى زاد العُمُران زادت الأعمالُ ثانية ثم زاد الترفُ تابعًا للكسب وزادت عوائده وحاجاته. واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية ونفقت سوق الأعمالِ بها أكثر من الأول. وكذا في الزيادة الثانية والثالثة لأنّ الأعمالَ الزائدة كلها تختص بالترفِ والغنى بخلاف الأعمالِ الأصلية التي تختص بالمعاش. فالمصّر إذا فضل بعُمُران واحد فضله بزيادة كسب ورفهٍ وبعوائد من الترفِ لا توجد في الآخر، فما كان عُمُرانه من الأمصارِ أكثر وأوفر كان حالُ أهله في الترفِ أبلغ من حالِ المصّر الذي دونه على وتيرة واحدة في الأصناف: القاضي مع القاضي والتاجر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوقي مع السوقي والأمير مع الأمير والشرطي مع الشرطي. واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحال فاس مع غيرها من أمصاره الأخرى، مثل بجاية وتلمسان وسبتة تجد بينهما بونا كثيرا على الجملة، ثم على الخصوصيات فحال القاضي بفاس أوسع من حال القاضي بتلمسان وهكذا كل صنف مع صنف أهله. وكذا أيضًا حال تلمسان مع وهران أو الجزائر وحال وهران والجزائر مع ما دونهما إلى أن تنتهي إلى المدر الذين اعتمالتهم في ضروريات معاشهم فقط ويقصرون عنها. وما ذلك إلا لتفاوت الأعمالِ فيها فكانها كلها أشواق للأعمال. والخرج في

كل سوق على نسبه فالقاضي بفاس دخله كفاء خرجه وكذا القاضي بتلمسان وحيث الدحل والخرج أكثر تكون الأحوال أعظم ، وهما بفاس أكثر لنفاق سوق الأعمال بما يدعو إليه الترف فالأحوال أضخم. ثم هكذا حال وهران وقسطنطينية والجزائر وبسكرة حتى تنتهي كما قلناه إلى الأمصار التي لا توفي أعمالها بضرورتها ولا تعد في الأمصار ، إذ هي من قبيل القرى والمدن. فلذلك تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال متقاربين في الفقر والخصاصة لما أن أعمالهم لا تفي بضرورتهم ولا يفضل ما يتأثلونه كسبًا فلا تنمو مكاسبهم. وهم لذلك مساكين محايج إلا في الأقل النادر. واعتبر ذلك حتى في أحوال الفقراء والشؤال فإن السائل بفاس أحسن حالًا من السائل بتلمسان أو وهران. ولقد شاهدت بفاس الشؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم ورأيتهم يسألون كثيرًا من أحوال الترف واقتراح المآكل مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون كالغربال والآنية. ولو سألت سائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجر. ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما يقضى منه العجب حتى أن كثيرًا من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النقلة إلى مصر لذلك ، ولما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها. وتعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم أو أموال مختزنة لديهم. وأنهم أكثر صدقة وإيثارًا من جميع أهل الأمصار وليس كذلك وإنما هو لما تعرفه من أن عُمران مصر والقاهرة أكثر من عُمران هذه الأمصار التي لديك فعظمت لذلك أحوالهم. وأما حال الدحل والخرج فمتكافئ في جميع الأمصار ، ومتى عظم الدحل عظم الخرج وبالعكس. ومتى عظم الدحل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر. وكل شيء يبلغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العُمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التي يسهل بسببها البذل والإيثار على مبتغيه ومثله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف تختلف أحوالها في هجرانها أو غشيانها فإن بيوت أهل النعم والثروة والموائد الخصبه منها تكثر بساحتها وأقنيتها بنثر الحبوب وسواقت الفتات فيزدحم عليها غواشي النمل والخشاش ويلحق فوقها عصائب الطيور حتى تروح بطانًا وتمتلئ شبعًا ورثًا. وبيوت أهل الخصاصة والفقر الكاسدة أرزاقهم لا يسري بساحتها ديب ولا يحلق بجوها طائر ولا تأوي إلى زوايا بيوتهم فأرة ولا هرة كما قال الشاعر:

يسقط الطير حيث ينتشر الحب وتغشى منازل الكرماء فتأمل سر الله تعالى في ذلك واعتبر غاشية الأناسي بغاشية العجم من الحيوانات وفتات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يذلها لاستغنائهم عنها في الأكثر لوجود أمثالها لديهم وأعلم أن اتساع الأحوال وكثرة النعم في العُمُران تابع لكثرتهم والله سبحانه وتعالى أعلم وهو غني عن العالمين.

الفصل الثاني عشر

في أسعار المدن

اعلم أن الأسواق كلها تشتمل على حاجات الناس فمنها الضروري، وهي الأقوات من الحنطة وما معناها كالباقلاء والبصل والثوم وأشباهه، ومنها الحاجي، والكمالي مثل الأدم والفواكه والملايس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمباني فإذا استبحر^(١) المصر وكثر ساكنة رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناه وعلت أسعار الكمالي من الأديم والفواكه وما يتبعها، وإذا قل ساكن المصر وضعف عُمرانه كان الأمر بالعكس من ذلك. والسبب في ذلك أن الحبوب من ضرورات القوت فتوفر الدواعي على اتخاذها، إذ كل أحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته فيعم اتخاذها أهل المصر أجمع، أو الأكثر منهم في ذلك المصر أو فيما قرب منه، لا بُد من ذلك. وكل متخذ لقوته، تفضل عنه وعن أهل بيته فضلة كبيرة تسد خلة كثيرين من أهل ذلك المصر فتفضل الأقوات عن أهل المصر من غير شك فترخص أسعارها في الغالب إلا ما يصيبها في بعض السنين من الآفات السماوية ولولا احتكار الناس لها لما يتوقع من تلك الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العُمُران.

وأما سائر المرافق من الأدم والفواكه وما إليها فإنها لا تعم بها البلوى ولا يستغرق اتخاذها أعمال أهل المصر أجمعين ولا الكثير منهم، ثم إن المصر إذا كان مستبحراً، موفور العُمُران، كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار

(١) استبحر: اتسع.

منها كل بحسب حاله، فيقصر الموجود منها على الحاجات قصورًا بالغًا ويكثر المستامون^(١) لها وهي قليلة في نفسها فتزدحم أهل الأغراض ويبدل أهل الرفه والترف أثمانها بإسراف في الغلاء لحاجتهم إليها أكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كما تراه.

وأما الصنائع والأعمال أيضًا في الأمصار الموفورة العمران فسبب الغلاء فيها أمور ثلاثة: الأول كثرة الحاجة لمكان الترف في المصر بكثرة عُمرانه، والثاني اعتزاز أهل الأعمال لخدمتهم وامتھان أنفسهم لسهولة المعاش في المدينة بكثرة أقواتها، والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتھان غيرهم وإلى استعمال الصناعات في مھنهم فيبدلون في ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستئثار بها فيغتر العمال والصناع وأهل الحرف وتغلو أعمالهم وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك.

وأما الأمصار الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتكرونه، فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه. وأما مرافقهم فلا تدعو إليها أيضًا حاجة بقله الساكن وضعف الأحوال فلا تنفق لديهم سوقه فيختص بالرخص في سعره. وقد يدخل أيضًا في قيمة الأقوات قيمة ما يعرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان، في الأسواق وأبواب المصر وللجباة في منافع يفرضونها على البياعات لأنفسهم. وبذلك كانت الأسعار في الأمصار أعلى من الأسعار في البادية إذ المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة. وكثرتها في الأمصار لا سيما في آخر الدولة وقد تدخل أيضًا في قيمة الأقوات قيمة علاجها في الفلح ويحافظ على ذلك في أسعارها كما وقع بالأندلس لهذا العهد. وذلك أنهم لما ألجأهم النصارى إلى سيف البحر وبلاد المتوغرة الخبيثة الزارة النكدة النبات وملكوا عليهم الأرض الزاكية والبلد الطيب فاحتاجوا إلى علاج المزارع والقدن لإصلاح نباتها وفلجها وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤونة، وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم. واحتص قطر الأندلس بالغلاء منذ اضطروهم النصارى إلى هذا المعمور بالإسلام مع سواحلها لأجل ذلك.

(١) المستامون : الطالبون والراغبون بالسلعة .

ويحسب النَّاسُ إِذَا سَمِعُوا بِغَلَاءِ الْأَشْعَارِ فِي قَطْرِهِمْ أَنَّهَا لِقَلَّةِ الْأَقْوَاتِ وَالْحَبُوبِ فِي أَرْضِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَهَمُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْمَعْمُورِ فَلَمَّا فِيهَا عِلْمَانَهُ وَأَقْوَمُهُمْ عَلَيْهِ وَقَلَّ أَنْ يَخْلُوهُ مِنْهُمْ سُلْطَانٌ أَوْ سَوْقَةٌ عَنْ فِدَانٍ أَوْ مَزْرَعَةٍ أَوْ فَلَاحٍ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ وَالْمِهْنِ أَوِ الطَّرَاءِ عَلَى الْوَطَنِ مِنَ الْغَزَاةِ الْمَجَاهِدِينَ. وَلِهَذَا يَخْتَصِمُ السُّلْطَانُ فِي عَطَائِهِمْ بِالْعَوْلَةِ^(١) وَهِيَ أَقْوَاتُهُمْ وَعُلُوفَاتُهُمْ مِنَ الزَّرْعِ. وَإِنَّمَا السَّبَبُ فِي غَلَاءِ سَعْرِ الْحَبُوبِ عِنْدَهُمْ مَا ذَكَرْنَاهُ. وَلَمَّا كَانَتْ بِلَادُ الْبُزْبَرِ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ فِي زَكَاةِ مَنَابِتِهِمْ وَطَيْبِ أَرْضِهِمْ ارْتَفَعَتْ عَنْهُمْ الْمُؤْنُ جَمَلَةٌ فِي الْفَلَاحِ مَعَ كَثْرَتِهِ وَعُمُومَتِهِ فَصَارَ ذَلِكَ سَبَبًا لِرُخْصِ الْأَقْوَاتِ بِيَلَدِهِمْ وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لَا رَبَّ سِوَاهُ.

لفصل الثالث عشر

في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير لعمران

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَصْرَ الْكَثِيرَ الْعُمُرَانَ يَكْثُرُ تَرْفُهُ كَمَا قَدَمْنَاهُ وَتَكْثُرُ حَاجَاتُ سَاكِنِهِ مِنْ أَجْلِ التَّرْفِ. وَتُعْتَادُ تِلْكَ الْحَاجَاتُ لَمَّا يَدْعُو إِلَيْهَا فَتَنْقَلِبُ ضَرُورَاتٍ وَتَصِيرُ الْأَعْمَالُ فِيهَا كُلِّهَا مَعَ ذَلِكَ عَزِيزَةً وَالْمَرَافِقُ غَالِيَةً بَارِدِحَامِ الْأَعْرَاضِ عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِ التَّرْفِ وَبِالْمَغَارِمِ السُّلْطَانِيَّةِ الَّتِي تَوْضَعُ عَلَى الْأَسْوَاقِ وَالْبِيَاعَاتِ، وَتَعْتَبِرُ فِي قِيمِ الْمَبِيعَاتِ وَيَعْظُمُ فِيهَا الْغَلَاءُ فِي الْمَرَافِقِ وَالْأَقْوَاتِ وَالْأَعْمَالِ، فَتَكْثُرُ لِذَلِكَ نَفَقَاتُ سَاكِنِهِ كَثْرَةً بِالْغَاةِ عَلَى نِسْبَةِ عُمُرَانِهِ. وَيَعْظُمُ خَرْجُهُ فَيَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى الْمَالِ الْكَثِيرِ لِلنَّفَقَةِ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ فِي ضَرُورَاتِ عَيْشِهِمْ وَسَائِرِ مُؤْنِهِمْ. وَالْبَدْوِيُّ لَمْ يَكُنْ دَخَلَهُ كَثِيرًا، إِذْ كَانَ سَاكِنًا بِمَكَانٍ كَاسِدِ الْأَسْوَاقِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الْكُشْبِ فَلَمْ يَتَأَثَّلْ كَسْبًا وَلَا مَالًا فَيَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سَكْنَى الْمَصْرِ الْكَبِيرِ لِفَلَاءِ مَرَافِقِهِ وَعِزَّةِ حَاجَاتِهِ. وَهُوَ فِي بَدْوِهِ يَسُدُّ حَاجَتَهُ بِأَقْلِ الْأَعْمَالِ لِأَنَّهُ قَلِيلٌ عَوَائِدُ التَّرْفِ فِي مَعَايِشِهِ وَسَائِرِ مُؤْنِهِ فَلَا يَضْطَرُّ إِلَى الْمَالِ وَكُلِّ مَنْ يَتَشَوَّفُ إِلَى الْمَصْرِ وَسَكْنَاهُ مِنَ الْبَادِيَةِ فَسَرِيعًا مَا يَظْهَرُ عَجْزُهُ وَيَفْتَضِحُ فِي اسْتِيطَانِهِ إِلَّا مَنْ يَقْدَمُ مِنْهُمْ تَأَثَّلُ الْمَالُ وَيَحْصُلُ لَهُ مِنْهُ فَوْقَ الْحَاجَةِ وَيَجْرِي إِلَى الْغَايَةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِأَهْلِ الْعُمُرَانَ مِنَ الدَّعَةِ وَالتَّرْفِ، فَحِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ

(١) أي يباعثهم.

إلي مصر وينتظم حاله مع أحوال أهله في عوائدهم وترفهم. وهكذا شأن بداية عُمران الأمصار. والله بكل شيء محيط.

لفصل الرابع عشر

في أن الأقطار في اختلاف أحوالها بالرّفه والفقير مثل الأوصار

اعلم أنّ ما توفر عُمرانه من الأقطار وتعددت الأمم في جهاته وكثر ساكنه اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولهم وممالكهم. والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الأعمال وما سيأتي ذكره من أنها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العُمران وكثرته فيعود على الناس كسبًا يتأثّلونه حسبما نذكر ذلك في فصل المعاش وبيان الرزق والكسب، فيزيد الرّفه لذلك وتتسع الأحوال ويحيى الترف والغنى وتكثر الجباية للدولة بنفاق الأسواق فيكثر مالها ويشمخ سلطانها وتتفنن في اتخاذ المعاقيل والحُصون واختطاط المدن وتشديد الأمصار. واعتبر ذلك بأقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها، وأقطارها وراء البحر الرّومي؛ لما كثر عُمرانها كيف كثر المال فيهم، وعظمت دولهم وتعددت مدنهم وحواضرهم وعظمت متاجرهم وأحوالهم. فالذي نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الأمم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفههم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف. وكذا تجار أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الأقصى من عراق العجم والهند والصين فإنه يبلغنا عنهم في باب الغنى والرّفه غرائب تسير الرّكبان بحديثها وربما تلقى بالإنكار في غالب الأمر. ويحسب من يسمعا من العامة أنّ ذلك لزيادة في أموالهم أو لأن المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم أو لأن ذهب الأقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم، وليس كذلك. فمعدن الذهب الذي نعرفه في هذه الأقطار إنّما هو من بلاد السودان وهي إلى المغرب أقرب. وجميع ما في أرضهم من البضاعة إنّما يجلبونه إلى غير بلادهم للتجارة. فلو كان المال عتيديًا

موفورًا لديهم لما جلبوا بضائعهم إلى سواهم يتغنون بها الأموال ولا استغنوا عن أموال الناس بالجملة.

ولقد ذهب المنجمون لما رأوا مثل ذلك واستغربوا ما في المشرق من كثرة الأحوال واتساعها ووفور أموالها فقالوا بأن عطايا الكواكب والسهام في مواليد المشرق أكثر منها حصصًا في مواليد أهل المغرب وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الأحكام النجومية والأحوال الأرضية كما قلناه وهم إنما أعطوا في ذلك السبب التحومي وبقي عليهم أن يعطوا السبب الأرضي، وهو ما ذكرناه من كثرة العُمران واختصاصه بأرض المشرق وأقطاره وكثرة العُمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الأعمال التي هي سببه فلذلك اختص المشرق بالرفه من بين الآفاق لا أن ذلك لمجرد الأثر النجمي. فقد فهمت مما أشرنا لك أولاً أنه لا يستقل بذلك وأن المطابقة بين حكمه وعُمران الأرض وطبيعتها أمر لا بُد منه.

واعتبر حال هذا الرفه من العُمران في قطر إفريقية وبرقة لما خف ساكنها وتناقص عُمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا إلى الفقر والخصاصه. وضعفت جباياتها فقلت أموال دولها بعد أن كانت دول الشيعة وصنهاجة بها على ما بلغك من الرفه وكثرة الجبايات واتساع الأحوال في نفقاتهم وأعطياتهم. حتى لقد كانت الأموال ترفع من القيروان إلى صاحب مصر لحاجاته ومهماتة، وكانت أموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب في سفره إلى فتح مصر ألف حمل من المال يستعدها لأرزاق الجنود وأعطياتهم ونفقات الغزاة.

وقطر المغرب وإن كان في القديم دون إفريقية فلم يكن بالقليل في ذلك وكانت أحواله في دول الموحدية متسعة وجباياته موفورة وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك لقصور العُمران فيه وتناقصه، فقد ذهب من عُمران التبر في أكثره ونقص عن معهوده نقصًا ظاهرًا محسوسًا، وكاد أن يلحق في أحواله بمثل أحوال إفريقية بعد أن كان عُمرانه متصلًا من البحر الرُّومي إلى بلاد السودان في طول ما بين الشوس الأقصى وبرقة. وهي اليوم كلها أو أكثرها ففار وخلاء وصحارى إلا ما هو منها بسيف البحر أو ما يقاربه من التلول. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

لفصل الخامس عشر

في تأكل العقار والضياع في الأضرار وعال فوائدها وسفلاتها

اعلم أنّ تأكل العقار والضياع الكثيرة لأهل الأضرار والمدن لا يكون دفعة واحدة ولا في عصر واحد، إذ ليس يكون لأحد منهم من الثروة ما يملك به الأملاك التي تخرج قيمها عن الحد ولو بلغت أحوالهم في الرفه ما عسى أن تبلغ. وإنما يكون ملكهم وتأكلهم لها تدريجاً إما بالوراثه من آباءه وذوي رحمه حتى تتأدى^(١) أملاك الكثيرين منهم إلى الواحد وأكثر كذلك أو أنّ يكون بحواله الأسواق، فإنّ العقار في آخر الدولة وأول الأخرى عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعي المصر إلى الخراب تقل الغبطة به لقله المنفعة فيها بتلاشي الأحوال فترخص قيمتها وتتملك بالأثمان اليسيرة وتتخلى بالميراث إلى ملك الآخر، وقد استجد المضر شبابه باستفحال الدولة الثانية وانتظمت له أحوال راقية حسنة تحصل معها الغبطة في العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ فتعظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن في الأول. وهذا معنى الحواله فيها ويصبح مالكةا من أغنى أهل المصر و ليس ذلك بسعيه واكتسابه، إذ قدرته تعجز عن مثل ذلك.

وأما فوائد العقار والضياع فهي غير كافية لمالكها في حاجات معاشه، إذ هي لا تفي بموائد الترف وأسبابه وإنما هي في الغالب لسد الخلة وضرورة المعاش. والذي سمعناه من مشيخة البلدان أنّ القصد باقتناء الملك من العقار والضياع إنّما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء ليكون مراهم به ورزقه فيه ونشوهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب فإذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم وربما يكون من الولد من يعجز عن التكتسب لضعف في بدنيه أو آفة في عقله المعاشي، فيكون ذلك العقار قواماً لحاله. هذا قصد المترفين في اقتنائه. وأما التمول منه وإجراء أحوال المترفين فلا. وقد

(١) تتأدى: تصل.

يُحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحوالة الأسواق وحصول الكثرة البالغة منه والعالي في جنسه وقيمته في المصر إلا أن ذلك إذا حصل ربما امتدت إليه أعين الأمراء والولاة واغتصبوه في الغالب أو أرادوه على بيعه منهم ونالت أصحابه منه مضار ومعاطب والله غالب على أمره، وهو رب العرش العظيم.

فصل السادس عشر

في هاجات التمولين من أهل الأوصار إلى الجاه والرافعة

وذلك أن الحضري إذا عظم تموله وكثر للعقار والضياح تأثله وأصبح أغني أهل المصر ورمقته العيون بذلك وانفسحت أحواله في الترف والقوائد زاحم عليها الأمراء والملوك وعضوا به . ولما في طباع البشر من العدوان تمتد أعينهم إلى تملك ما بيده وينافسونه فيه ويتحيلون على ذلك بكل ممكن حتى يحصلوه في ربة حكم سلطانني وسبب من المؤاخذة ظاهر، يتترع به ماله . وأكثر الأحكام السلطانية جائزة في الغالب، إذ العدل المحض إنما هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة اللبث . قال عليه السلام : « الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تعود ملكاً عضوياً » . فلا بُد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العُمران من حامية تدود عنه ^١ وجاه ينسحب عليه من ذي قرابة للملك أو خالصة له أو عصبية يتحامها السلطان فيستظل هو بظلها ويرتع في أمنها من طوارق التعدي . وإن لم يكن له ذلك أصبح نهياً بوجوه التخيلات وأسباب الحكام . والله يحكم لا معقب لحكمه .

الترمذي في الفتن برقم (٢٢٢٧) .

غصوا به : شعروا بالضيق منه .

تدود عنه : تحميه وتدافع عنه .

الفصل السابع عشر

في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول وإنما رسخ بانصال الدولة ورسوخها

والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوالٌ عاديةٌ زائدةٌ على الضروري من أحوال العُمران زيادةً تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتًا غير منحصر، وتقع فيها عند كثرة التّفنن في أنواعها وأصنافها فتكون بمنزلة الصنائع، ويحتاج كل صنف منها إلى القوّة عليه، والمهارة فيه، وبقدر ما يتزيد من أصنافها تتزيد أهل صناعتها، ويتلون ذلك الجيل بها، ومتى اتصلت الأيام وتعاقبت تلك الصناعات حذق أولئك الصنّاع في صناعتهم ومهروا في معرفتها. والأعصار بطولها وانفساح أمدّها وتكرير أمثالها تزيدها استحكامًا ورسوخًا، وأكثر ما يقع ذلك في الأمصار لاستبحار العُمران وكثرة الرفه في أهلها. وذلك كله إنما يجيء من قبل الدولة لأنّ الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها وتتسع أحوالهم بالجاء أكثر من اتساعها بالمال فيكون دخل تلك الأموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة ثمّ في من تعلق بهم من أهل المصر وهم الأكثر فتعظم لذلك ثروتهم ويكثر غناهم وتزيد عوائد الترف ومذاهبه وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه، وهذه هي الحضارة. ولهذا تجد الأمصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العُمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها، وما ذلك إلا لمجاورة الشلطان لهم وفيض أمواله فيهم كالماء يخضّر ما قرب منه، ممّا قرب من الأرض إلى أن ينتهي إلى الجفوف على البعد، وقدّ قدّمنا أنّ الشلطان والدولة سوق للعالم. فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه، وإذا بعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة ثمّ أنه إذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحدًا بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخًا.

واعتبر ذلك في اليهود لما طال ملكهم بالشام نحوًا من ألف وأربعمائة سنة رسخت حضارتهم وحذقوا في أحوال المعاش وعوائده والتّفنن في صناعاته من المطاعم والملابس

وسائر أحوال المنزل حتى أنها لتؤخذ عنهم في الغالب إلى اليوم. ورسخت الحضارة أيضًا وعوائدها في الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة فكانوا في غاية الحضارة.

وكذلك أيضًا القبط دام ملكهم في الخليفة ثلاثة آلاف من السنين فرسخت عوائد الحضارة في بلدهم مصر، وأعقبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الإسلام الناسخ للكل. فلم تزل عوائد الحضارة بها متصلة وكذلك أيضًا رسخت عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالة والتبابعة آلافًا من السنين وأعقبهم ملك مصر.

وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس بها من لدن الكلدانيين والكنيئة والكسروية والعرب بعدهم آلافًا من السنين فلم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر.

وكذا أيضًا رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالأندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط ثم ما أعقبها من ملك بني أمية آلافًا من السنين. وكلتا الدولتين عظيمة، فاتصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت.

وأما إفريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الإسلام ملك ضخم إنما قطع الإفرنجة إلى إفريقية البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة البربر أهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة، فكانوا على قلعة أو فاز. وأهل المغرب لم تجاورهم دولة وإنما كانوا يعيشون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر. ولما جاء الله بالإسلام وملك العرب إفريقية والمغرب، ولم يلبث فيهم ملك العرب إلا قليلاً أول الإسلام، وكانوا لذلك العهد في طور البداوة ومن استقر منهم بإفريقية والمغرب لم يجد بهما من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه، إذ كانوا برابر منغمسين في البداوة ثم انتقض برابرة المغرب الأقصى لأقرب اليهود على مسيرة المظفري أيام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا أمر العرب بعد واستقلوا بأمر أنفسهم وإن بايعوا لإدريس فلا تعد دولته فيهم عربية؛ لأن البرابر هم الذين تولوها ولم يكن من العرب، فيها كثير عدد وبقيت إفريقية للأغلبة ومن إليهم من العرب فكان لهم من الحضارة بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران القيروان. وورث ذلك عنهم كتامة ثم صنهاجة من بعدهم وذلك كله قليل لم يبلغ أربعمائة سنة وانصرفت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة، وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها وبقي أثر خفي من حضارة العُمُران فيها وإلى هذا العهد يُؤنس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدي سلف

فتجد له من أحوال الحضارة في شؤون منزله وعوائد أحواله آثارًا ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصير بها، وكذا في أكثر أمصار إفريقية وليس كذلك في المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة إفريقية أكثر أمداً منذ عهد الأغالبة والشيعة وصنهاجة .

وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظٌ كبيرٌ من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعاً وكرهاً وكانت من اتساع النطاق ما علمت فكان فيها حظٌ صالحٌ من الحضارة واستحكامها ومعظمها من أهل الأندلس، ثم انتقل أهل شرف الأندلس عند جالية النصارى إلى إفريقية فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثارًا، ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها فكان بذلك للمغرب وأفريقية حظٌ صالحٌ من الحضارة عفي عليه الخلاء ورجع إلى أعقابه وعاد التبرير بالمغرب إلى أديانهم من البداوة والخشونة، وعلى كل حال فآثار الحضارة إفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب، ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين بينهم. فتفظن لهذا السر فإنه خفي عن الناس.

وَأَعْلَمُ أَنَّهَا أُمُورٌ مُتَنَاسِبَةٌ وَهِيَ حَالُ الدَّوْلَةِ فِي القُوَّةِ وَالضَّعْفِ وَكَثْرَةُ الأُمَّةِ أَوِ الجِيلِ وَعَظْمُ المَدِينَةِ أَوِ المَصْرِ وَكَثْرَةُ النِّعْمَةِ وَاليسارِ . وَذَلِكَ أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالملكِ صُورَةَ الخليفةِ وَالعُمَرَانَ وَكُلِّهَا مَادَّةَ لَهَا مِنَ الرِّعَايَا وَالأمْصَارِ وَسَائِرِ الأَحْوَالِ . وَأَمْوَالُ الجبايةِ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ وَيَسَارُهُمْ فِي الغالبِ مِنَ أسواقِهِمْ ، وَمَتَاجِرِهِمْ . وَإِذَا أَفَاضَ السُّلْطَانُ عَطَاءَهُ وَأَمْوَالَهُ فِي أَهْلِهَا انبثت^(١) فِيهِمْ وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ ثُمَّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ ، فَهِيَ ذَاهِبَةٌ عَنْهُمْ فِي الجبايةِ وَالخراجِ ، عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي العطاءِ . فَعَلَى نِسْبَةِ حَالِ الدَّوْلَةِ يَكُونُ يَسَارُ الرِّعَايَا وَعَلَى يَسَارِ الرِّعَايَا وَكَثْرَتِهِمْ يَكُونُ مَالُ الدَّوْلَةِ وَأَصْلُهُ كَلَّةُ العُمَرَانَ وَكَثْرَتُهُ فاعْتَبِرْهُ وَتَأَمَّلْهُ فِي الدَّوْلِ تَجِدْهُ . وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَحْكُمُ لَا مَعْقِبَ لِحُكْمِهِ .

(١) انبثت : أي انتشرت .

الفصل الثامن عشر

في أن الحضارة غاية عمران ونهاية عمره وأنها مؤزنة بفساده

قَدْ بَيَّنَّا لَكَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ الْمَلِكَ وَالذُّوْلَ غَايَةَ لِلعَصِيْبِيَّةِ وَأَنَّ الحَضَارَةَ غَايَةَ لِلبِدَاوَةِ وَأَنَّ العُمُرَانَ كُلَّهُ مِنْ بِدَاوَةٍ وَحَضَارَةٍ وَمَلِكٍ وَسُوقَةٍ لَهُ عَمْرٌ مَحْسُوسٌ ، كَمَا أَنَّ لِلشَّخْصِ الْوَاحِدِ مِنْ أَشْخَاصِ الْمَكُونَاتِ عَمْرًا مَحْسُوسًا . وَتَبَيَّنَ فِي الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ أَنَّ الْأَرْبَعِينَ لِلْإِنْسَانِ غَايَةٌ فِي تَزَايِدِ قُوَاهِ وَنُمُوِّهَا ، وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ سِنُّ الْأَرْبَعِينَ وَقَفَتِ الطَّبِيعَةُ عَنِ أَثَرِ النُّشُوءِ وَالنَّمُوِّ بِرَهَةٍ ثُمَّ تَأْخُذُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْإِنْحِطَاطِ . فَلْتَعْلَمَنَّ أَنَّ الحَضَارَةَ فِي العُمُرَانِ أَيْضًا كَذَلِكَ لِأَنَّهُ غَايَةُ لَا مَزِيدَ وَرَاءَهَا وَذَلِكَ أَنَّ التَّرْفَ وَالنِّعْمَةَ إِذَا حَصَلَا لِأَهْلِ العُمُرَانِ دَعَاهُمُ طَبِيعُهُ إِلَى مَذَاهِبِ الحَضَارَةِ وَالتَّخَلُّقِ بِعَوَائِدِهَا . وَالْحَضَارَةَ كَمَا عَلِمْتَ هِيَ التَّقْنُ فِي التَّرْفِ وَاسْتِجَادَةِ أَحْوَالِهَا وَالْكَلْفِ بِالصَّنَائِعِ الَّتِي تَوْنُقُ مِنْ أَصْنَافِهِ وَسَائِرِ فَنُونِهِ مِنَ الصَّنَائِعِ الْمَهِيئَةِ لِلْمَطَابَخِ أَوِ الْمَلَابِسِ أَوِ الْمَبَانِي أَوِ الْفُرْشِ أَوِ الْآبِيَةِ وَسَائِرِ أَحْوَالِ الْمَنْزَلِ . وَلِلتَّائِقِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ صِنَائِعَ كَثِيرَةً لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا عِنْدَ الْبِدَاوَةِ وَعَدَمِ التَّائِقِ فِيهَا . وَإِذَا بَلَغَ التَّائِقُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْمَنْزِلِيَّةِ الْغَايَةَ تَبِعَهُ طَاعَةُ الشَّهَوَاتِ فَتَلَوَّنُ النَّفْسُ مِنْ تِلْكَ الْعَوَائِدِ بِالْوَانِ كَثِيرَةٍ لَا يَسْتَقِيمُ حَالُهَا مَعَهَا فِي دِينِهَا وَلَا دُنْيَاهَا ، أَمَا دِينُهَا فَلَا سِتْحَاكَمَ صَبِغَةَ الْعَوَائِدِ الَّتِي يَعْسِرُ نَزْعُهَا ، وَأَمَا دُنْيَاهَا فَلِكثْرَةُ الْحَاجَاتِ وَالْمُؤُونَاتِ الَّتِي تَطَالِبُ بِهَا الْعَوَائِدُ وَيَعْجِزُ وَيَنْكَبُ عَنِ الْوَفَاءِ بِهَا . وَيَبَانُ أَنَّ الْمَصْرَ بِالتَّقْنِ فِي الحَضَارَةِ تَعْظُمُ نَفَقَاتُ أَهْلِهَا ، وَالْحَضَارَةَ تَتَفَاوَتُ بِتَفَاوُتِ العُمُرَانِ فَمَتَى كَانَ العُمُرَانُ أَكْثَرَ كَانَتِ الحَضَارَةُ أَكْمَلَ . وَقَدْ كُنَّا قَدَمْنَا أَنَّ الْمَصْرَ الْكَثِيرَ العُمُرَانَ يَخْتَصُّ بِالْغَلَاءِ فِي أَسْوَاقِهِ وَأَسْعَارِ حَاجَاتِهِ . ثُمَّ تَزِيدُهَا الْمَكُوسُ غَلَاةً لِأَنَّ الحَضَارَةَ إِنَّمَا تَكُونُ عِنْدَ انْتِهَاءِ الدَّوْلَةِ فِي اسْتِفْحَالِهَا وَهُوَ زَمَنُ وَضْعِ الْمَكُوسِ فِي الدَّوْلِ لِكثْرَةِ خُرُوجِهَا حَيْثُذُ كَمَا تَقْدَمُ . وَالْمَكُوسُ تَعُودُ إِلَى الْبِيَاعَاتِ بِالْغَلَاءِ لِأَنَّ السُّوقَةَ وَالتَّجَارَةَ كُلَّهُمْ يَحْتَسِبُونَ عَلَى سَلْعِهِمْ وَبِضَائِعِهِمْ جَمِيعَ مَا يَنْفَقُونَهُ حَتَّى فِي مَوْئِنِهِمْ أَنْفُسَهُمْ فَيَكُونُ الْمَكْسُ لَذَلِكَ دَاخِلًا فِي قِيمِ الْمَبِيعَاتِ وَأَثْمَانِهَا . فَتَعْظُمُ نَفَقَاتُ أَهْلِ الحَضَارَةِ وَتَخْرُجُ عَنِ الْقَصْدِ إِلَى الْإِسْرَافِ . وَلَا يَجِدُونَ وَلِيَجَةَ عَنِ ذَلِكَ لَمَّا مَلَكَهُمْ مِنْ أَثَرِ الْعَوَائِدِ وَطَاعَتِهَا وَتَذَهَبُ مَكَاسِيهِمْ كُلِّهَا فِي

النفقات ويتتابعون في الإملاق والخاصة ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للبضائع فتكسد الأسواق ويفسد حال المدينة . وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف . وهذيه مفسدات في المدينة على العموم في الأسواق والعمران .

وأما فساد أهلها في ذاتهم واحداً واحداً على الخصوص فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بألوان الشر في تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها . فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحليل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه . وتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة^(١) والشرقة والفجور في الأيمان والزبا في البياعات ثم تجدهم لكثرة الشهوات والملاذ الناشئة عن الترف أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبداعيه وأطراح الحشمة في الخوض فيه حتى بين الأقارب وذوي الأرحام والمحارم الذين تقتضي البداوة الحياء منهم في الإقذاع بذلك . وتجدهم أيضاً أبصر بالمكر والخديعة يدفعون بذلك ما عساه أن ينالهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح حتى يصير ذلك عادة وخلقاً لأكثرهم إلا من عصمه الله . ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب وأهملته الدولة من عدادها ، وغلب عليه خلق الجوار وإن كانوا أهل أنساب وبيوتات ، وذلك أن الناس بشر متماثلون وإنما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل . فمن استحكمت فيه صبغة الرذيلة بأي وجه كان ، وفسد خلق الخير فيه ، لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته . ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوي الأحساب والأصالة وأهل الدول منطرحين في الغمار منتحلين للحرف الدنيئة في معاشهم بما فسد من أخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة ، وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٦] .

ووجهه حينئذ أن مكاسبهم حينئذ لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم أحوالهم . وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت وهذا معنى ما يقوله بعض أهل الخواص أن المدينة إذا كثر فيها غرس النارج تأذنت بالخراب

(١) الخلابه : الخداع والغش .

حتى أَنَّ كثيراً من العامة يتحامي غرس النارج بالدور تطيراً به^(١). ولئیس المراد ذَلِكَ ولا أنه خاصية في النارج وإنما معناه أَنَّ البساتين وإجراء المياه هو من توابع الحضارة. ثُمَّ أَنَّ النارج اللّيمّ والشّزو وأمثال ذَلِكَ مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة، إذ لا يُقصدُ بها في البساتين إلا أشكالها فقط ولا تغرس إلا بعد التّفنن في مذاهب التّرف. وهذا هو الطّور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه. ولقد قبل مثل ذَلِكَ في الدّفلى وهو من هذا الباب، إذ الدّفلى لا يقصدُ بها إلا تلون البساتين بنورها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب التّرف.

ومن مفساد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة التّرف، فيقع التّفنن في شهوات البطن من المآكل والملاذ والمشارب وطبيها. ويتبع ذَلِكَ التّفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزّنا واللواط، فيفضي ذَلِكَ إلى فساد النوع. إما بواسطة اختلاط الأنساب كما في الزّنا، فيجهل كل واحد ابنه، إذ هو لغير رِشدة، لأنّ المياه مختلطة في الأرحام، فتفقد الشفقة الطّبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون، ويؤدي ذَلِكَ إلى انقطاع النوع، أو يكون فساد النوع بغير واسطة، كما في اللواط المؤدي إلى عدم النسل رأساً وهو أشد في فساد النوع. والزّنا يؤدي إلى عدم ما يوجد منه. ولذَلِكَ كَانَ مذهب مالك رحمه الله في اللواط أظهر من مذهب غيره، ودل على أنه أبصر بمقاصد الشريعة واعتبارها للمصالح.

فافهم ذَلِكَ واعتبر به أَنَّ غاية العُمران هي الحضارة والتّرف وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطّبيعية للحيوانات. بل نقول إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والتّرف هي عين الفساد لأنّ الإنسان إنمّا هو إنسان باقتداره على جلب منفعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك. والحضري لا يقدر على مباشرة حاجاته، إما عجزاً لما حصل له من الدّعة أو ترقفاً لما حصل من المربي في النعيم والتّرف. وكلا الأمرين ذميم. وكذلك لا يقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعي في ذلك. والحضري بما قد فقد من خُلق الإنسان بالتّرف والنعيم في قهر التأديب والتعلم فهو لذلك عيال على الحامية التي تدافع عنه. ثُمَّ هو فاسد أيضاً غالباً بما فسدت منه العوائد وطاعتها في ما تلونت به النفس من مكانتها كما قررناه إلا في الأقل النادر. وإذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد

(١) التطير: بمعنى التشاؤم.

فسدت إنسانيته وصار مسخاً على الحقيقة. وبهذا الاعتبار كَانَ الَّذِينَ يتقربون من جند السلطان إِلَى البداوة والخشونة أنفع من الَّذِينَ يتربون عَلَى الحضارة وحُلُقِهَا. وهذا موجود في كل دولة. فقد تبين أَنَّ الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العُمرَان والدولة. وَاللَّهُ سبحانه وتعالى ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ لا يشغله شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ.

الفصل التاسع عشر

في أن الأوصار التي تكون كرسيًا للملك تخرب بخراب الدولة وانقراضها

قد استقرينا في العُمرَان أَنَّ الدولة إِذَا اختلت وانتقصت فَإِنَّ المِصر الذي يكون كرسيًا لسلطانها ينتقض عُمرانه وربما ينتهي في انقراضه إِلَى الخراب ولا يكاد ذَلِكَ يتخلف. والسبب فِيهِ أمور: الأول أَنَّ الدولة لا بُدَّ فِي أولها من البداوة المقتضية للتجافي عَنْ أُمُوال النَّاس والبعد عَنْ التَّحذلق. ويدعو ذَلِكَ إِلَى تخفيف الجباية والمغارم التي منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقل الترف، فَإِذَا صار المِصر الذي كَانَ كرسيًا للملك فِي ملكة هَذِهِ الدولة المتجددة ونقصت أحوال الترف فِيها نقص الترف فيمن تحت أيديها من أَهل المِصر لِأَنَّ الرعايا تَبِعَ للدولة فيرجعون إِلَى خلق الدولة إِثْمًا طوعًا لما فِي طباع البَشَر من تقليد متبوعهم أَوْ كرها لما يدعو إِلَيْهِ خلق الدولة من الانقباض عَنْ الترف فِي جميع الأحوال و قلة الفوائد التي هي مادة العوائد فتقصر لِذَلِكَ حضارة المِصر ويذهب معه كثير من عوائد الترف. وَهُوَ معنى ما نقول فِي خراب المِصر.

الأمر الثاني أَنَّ الدولة إِثْمًا يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب، وَإِثْمًا يكون بعد العداوة والحروب. والعداوة تقتضي منافاة بين أَهل الدولتين وتكثر إحداهما عَلَى الأخرى فِي العوائد والأحوال. وَعَلَبَ أَحَدَ المتنافيين يذهب بالمنافي الآخر فتكون أحوال الدولة السابقة منكورة عند أَهل الدولة الجديدة ومستبشعة وقبيحة. وخصوصًا أحوال الترف فَتُفْقَدُ فِي عرفهم بنكير الدولة لها، حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف فتكون عنها حضارة مستأنفة. وفيما بين ذَلِكَ قصور الحضارة الأولى ونقصها وَهُوَ معنى اختلال العُمرَان فِي المِصر.

الأمر الثالث أَنَّ كل أمة لا بُدَّ لَهُمْ من وطن وَهُوَ منشأهم ومِنهُ أولية ملكهم. وَإِذَا ملكوا

ملكًا آخر صار تبعًا للأول وأمصاره تابعة لأمصار الأول. واتسع نطاق الملك عليهم. ولا بُدَّ من توسط الكرسي بين تخوم الممالك التي للدولة لأنه شبه المركز للنطاق، فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الأول وتهوي أفدة الناس من أجل الدولة والسلطان فينتقل إليه العُمَران ويخف من مصر الكرسي الأول. والحَصَاة إنَّما هي توفر العُمَران كما قدمناه فتقص حضارته وتمدنه. وهُوَ معنى اختلاله. وهذا كما وقع للسلاجقية في عدولهم بكرسيهم عن بغداد إلى أصبهان، وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة، ولبنو العباس في العدول عن دمشق إلى بغداد ولبنو مرين بالمغرب في العدول عن مراکش إلى فاس. وبالجملة فاتخاذ الدولة الكرسي في مصر يخل بعُمَران الكرسي الأول.

الأمر الرابع أنَّ الدولة الثانية لا بُدَّ فيها من أهل الدولة السابقة وأشياعها بتحويلهم إلى قطر آخر تُؤمَّن فيه غائلتهم على الدولة وأكثر أهل المصر الكرسي أشياع الدولة. أما من الحامية الذين نزلوا به أول الدولة أو من أعيان المصر، لأنَّ لهم في الغالب مخالطةً للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم. بل أكثرهم ناشئ في الدولة فهم شيعة لها. وإن لم يكونوا بالشوكة والعصبية فهم بالميل والمحبة والعقيدة. وطبيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة السابقة فينقلهم من مصر الكرسي إلى وطنها المتمكن في ملكتها. فبعضهم على نوع التغريب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي إلى النفرة حتى لا يبقى في مِصرِ الكرسي إلاَّ الباعة والهمل من أهل الفلخ والعيارة^(١) وسواد العامة وينزل مكانهم حاميتها وأشياعها من يشتد به المصر. وإذا ذهب من مصر أعيانه على طبقاتهم نقص ساكنه، وهُوَ معنى اختلال عُمَرانه. ثُمَّ لا بُدَّ من أن يستجد عُمَران آخر في ظل الدولة الجديدة وتحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة. وإنَّما ذلك بمثابة من يملك بيتًا داخله البلي، والكثير من أوضاعه في بيوته ومرافقه لا توافق مقترحه، وله قدرة على أوصاف مخصوصة على تغيير تلك الأوضاع وإعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه فيخرب ذلك البيت ثُمَّ يعيد بناءه ثانيًا. وَقَدْ وقع من ذلك كثير في الأمصار التي هي كراسي للملك وشاهدناه وعرفناه ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المزمل: ٢٠].

والسبب الطبيعي الأول في ذلك على الجملة أنَّ الدولة والملك للعُمَران بمثابة الصورة للمادة، وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها. وَقَدْ تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن

انفكاك أحدهما عن الآخر. فالدولة دون العُمُران لا تتصور والعُمُران دون الدولة والملك متعذر لما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع فتتعين السياسة لذلك ، أما الشريعة أو الملكية وهُوَ معنى الدولة وإذا كانا لا ينفكآن فاختلال أحدهما مؤثّر في اختلال الآخر ، كما أنّ عدمه مؤثر في عدمه والخلل العظيم إنّما يكون من خلال الدولة الكلية ، مثل دولة الرُّوم أو الفرس أو العَرَب على العموم أو بني أمية أو بني العباس كذلك. وأما الدول الشخصية مثل دولة أنوشروان ، أو هرقل ، أو عبد الملك بن مروان ، أو الرّشيد ، فأشخاصها متعاقبة على العُمُران حافظة لوجوده وبقائه وقرية الشبه بعضها من بعض فلا تؤثر كثيرَ اختلالٍ لأنّ الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العُمُران إنّما هي العصبية والشوكة وهي مستمرة مع أشخاص الدول فإذا ذهبت تلك العصبية ودفعتها عصبية أخرى مؤثرة في العُمُران ذهبت أهل الشوكة بأجمعهم وعظم الخلل كما قررناه أولاً . والله قادرٌ على ما يشاء ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿ [فاطر: ١٦ - ١٧] .

فصل العشرون

في اختصاص بعض الأوصار ببعض الصنائع ودون بعض

وذلك أنه من البين أنّ أعمال أهل المصر يستدعي بعضها بعضًا لما في طبيعة العُمُران من التعاون وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل المصر فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه لعموم البلوى به في المصر والحاجة إليه. وما لا يستدعي في المصر يكون عُفلاً ، إذ لا فائدة لمنتحله في الاحتراف به. وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالخياط والحداد والنجار وأمثالها وما يستدعي لعوائد الترف وأحواله فإنّما يوجد في المدن المستبشرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصنائع والدهان والطباخ والصفار والسفاج والفراس والذباح وأمثال هذه وهي متفاوتة. ويقدر ما تريد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك المصر دون غيره ، ومن هذا الباب الحمّامات لأنها إنّما توجد في الأمصار المستحضرة المستبشرة العُمُران لما يدعو إليه الترف والغنى من التعم ، ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة. وإن نزع بعض الملوك والرؤساء إليها فيختطها

ويجري أحوالها. إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعان ما تهجر وتخرّب وتفر عنها القومة لقلّة فائدتهم ومعاشهم منها. ﴿وَاللَّهُ يَقِضُ وَيَبْصُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

الفصل الحادي والعشرون

في جهود العصبية في الأصرار وثقل بعضهم على بعض

من البين أنّ الالتحام أو الاتصال موجود في طباع البشر وإن لم يكونوا أهل نسب واحد إلا أنه كما قدمناه أضعف مما يكون بالنسب وأنه تحصل به العصبية بعضًا مما تحصل بالنسب. وأهل الأَمْصَار كثير منكم ملتحمون بالصّهر يجذب بعضهم بعضًا إلى أن يكونوا لحمًا لحمًا وقرابة قرابة، تجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله فيتفرقون شيعة وعصائب فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الدولة عن القاصية احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلدهم ورجعوا إلى الشورى وتميّز العلية عن السفلة. والنفوس بطباعها متطاوله إلى الغلب والرئاسة فتطمح المشيخة لخلاء الجو من الشلطان والدولة القاهرة إلى الاستبداد وينازع كل صاحبه ويستوصلون بالأتباع من الموالي والشيعة والأحلاف ويذلون ما في أيديهم للأوغاد والأوشاب^(١) فيعصوب^(٢) كل لصاحبه ويتعين الغلب لبعضهم فيعطف على أكفائه ليغض من أعتهم ويتبعهم بالقتل أو التغريب حتى يخضد منهم الشوكات النافذة ويقلم الأظفار الخادشة ويستبد بمصره أجمع. ويرى أنه قد استحدث ملكًا يورثه عقبه فيحدث في ذلك الملك الأصغر ما يحدث في الملك الأعظم من عوارض الجدّة والهرم. وربما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعظم أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزحوف والحروب والأقطار والممالك فينتحلون بها من الجلوس على السرير واتخاذ الآلة وإعداد المواكب للسير في أقطار البلد والتختم والتحية والخطاب بالتهويل وما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها بأهل. إنمّا دفعهم إلى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرايات حتى صارت عصبية. وقد

(١) الأوشاب: الأشرار السفلة.

(٢) بعصوب: يتحزب.

يَتَنَزَّهُ بَعْضُهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَجْرِي عَلَى مَذْهَبِ السُّدَاجَةِ فَرَارًا مِنَ التَّعْرِضِ بِنَفْسِهِ لِلسُّخْرِيَةِ وَالْعَبْثِ. وَقَدْ وَقَعَ هَذَا بِإِفْرِيقِيَّةٍ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ الْحَفْصِيَّةِ لِأَهْلِ بِلَادِ الْجَرِيدِ مِنْ طَرَابِلُسٍ وَقَابِسٍ وَتُوَزَّرَ وَنُقْطَةَ وَقَفْصَةَ وَبَشَكَرَةَ وَالزَّابِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ. سَمُوا إِلَى مِثْلِهَا عِنْدَ تَقْلُصِ ظِلِّ الدَّوْلَةِ عَنْهُمْ مِنْذَ عَقُودٍ مِنَ السُّنَنِ فَاسْتَعْلَبُوا عَلَى أَمْصَارِهِمْ وَاسْتَبَدُّوا بِأَمْرِهَا عَلَى الدَّوْلَةِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْجَبَايَةِ. وَأَعْطَوْا طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ وَصَفْقَةَ مَرْمُضَةَ وَأَقْطَعُوهَا جَانِبًا مِنَ الْمَلَائِنَةِ وَالْمَلَاطِفَةِ وَالْإِنْقِيَادِ وَهُمْ بِمَعزِلٍ عَنْهُ. وَأُورِثُوا ذَلِكَ أَعْقَابَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ، وَحَدَّثَ فِي خَلْقِهِمْ مِنَ الْعِلْظَةِ وَالتَّجْبِيرِ مَا يَحْدُثُ لِأَعْقَابِ الْمُلُوكِ وَخَلْفِهِمْ. وَنَظَّمُوا أَنْفُسَهُمْ فِي عِدَادِ السُّلَاطِينِ عَلَى قَرَبِ عَهْدِهِمْ بِالسُّوْقَةِ حَتَّى مَحَا ذَلِكَ مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو الْعَبَّاسِ وَانْتَزَعَ مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ كَمَا نَذَكَرُهُ فِي أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ. وَقَدْ كَانَ مِثْلَ ذَلِكَ وَقَعَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ الصَّنَهَاجِيَّةِ. وَاسْتَقْبَلَ بِأَمْصَارِ الْجَرِيدِ أَهْلَهَا وَاسْتَبَدُّوا عَلَى الدَّوْلَةِ حَتَّى انْتَزَعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ شَيْخُ الْمُوحِدِينَ وَمَلِكُهُمْ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ وَنَقَلَهُمْ مِنْ إِمَارَاتِهِمْ بِهَا إِلَى الْمَغْرِبِ وَمَحَا مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ آثَارَهُمْ كَمَا نَذَكَرُ فِي أَخْبَارِهِ. وَكَذَا وَقَعَ بِسَبْتَةِ لِآخِرِ دَوْلَةِ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ.

وَهَذَا التَّغْلِبُ يَكُونُ غَالِبًا فِي أَهْلِ الشَّرَوَاتِ^(١) وَالْبِيُوتَاتِ الْمُرْشِحِينَ لِلْمَشِيخَةِ وَالرِّئَاسَةِ فِي الْمِصْرِ، وَقَدْ يَدُوثُ التَّغْلِبُ لِبَعْضِ السُّفْلَةِ مِنَ الْفُوغَاءِ وَالذَّهْمَاءِ. وَإِذَا حَصَلَتْ لَهُ الْعَصَبِيَّةُ وَالِاتِّحَامُ بِالْأَوْغَادِ لِأَسْبَابِ يَجْرُؤُهَا لَهُ الْمَقْدَارُ فَيَتَغْلِبُ عَلَى الْمَشِيخَةِ وَالْعِلْيَةِ إِذَا كَانُوا فَاقِدِينَ لِلْعِصَابَةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿عَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يُوسُفُ: ٢١].

فصل الثاني والعشرون

في لغات أهل الأرمصار

اعلم أنَّ لُغَاتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِنَّمَا تَكُونُ بِلِسَانِ الْأُمَّةِ أَوِ الْجِيلِ الْغَالِبِينَ عَلَيْهَا أَوِ الْمُخْتَلِطِينَ لَهَا، وَلِذَلِكَ كَانَتْ لُغَاتُ الْأَمْصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا بِالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ عَرَبِيَّةً وَإِنْ كَانَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْمِصْرِيُّ قَدْ فَسَدَتْ مَلِكْتُهُ وَتَغْيِيرُ إِعْرَابِهِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا وَقَعَ لِلدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْغَلْبِ عَلَى الْأُمَمِ وَالذِّينِ وَالْمَلَّةِ صُورَةَ لِلْوُجُودِ وَلِلْمَلِكِ. وَكُلِّهَا مَوَادٌّ لَهُ، وَالصُّورَةُ مَقْدَمَةٌ عَلَى الْمَادَّةِ وَالذِّينِ إِنَّمَا يَسْتَفَادُ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَهِيَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ لِمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَرَبِيٌّ فَوَجِبَ هَجْرُ مَا سِوَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْأَلْسِنِ فِي جَمِيعِ مَمَالِكِهَا. وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ

(١) أهل الشروات: أهل المروعات والرياسة والشرف.

في نهي عمر - رضي الله عنه - عن رطانة الأعاجم وَقَالَ : إنها حِبٌّ ، أي مكر وخديعة ، فلما هجر الذين اللغات الأعجمية وَكَانَ لِسَانُ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَرَبِيًّا هَجَرَتْ كُلُّهَا فِي جَمِيعِ مَمَالِكِهَا ، لِأَنَّ النَّاسَ تَبِعَ لِلشُّلْطَانِ وَعَلَى دِينِهِ فَصَارَ اسْتِعْمَالُ اللُّسَانِ الْعَرَبِيِّ مِنْ شِعَائِرِ الْإِسْلَامِ وَطَاعَةِ الْعَرَبِ . وَهَجَرَ الْأُمَّمَ لُغَاتِهِمْ وَأَسْتَهْمَ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَالْمَمَالِكِ . وَصَارَ اللُّسَانُ الْعَرَبِيُّ لِسَانَهُمْ حَتَّى رَسَخَ ذَلِكَ لُغَةً فِي جَمِيعِ أَمْصَارِهِمْ وَمَدَنِهِمْ وَصَارَتْ الْأَلْسِنَةُ الْعَجْمِيَّةُ دَخِيلَةً فِيهَا وَغَرِيبَةً . ثُمَّ فَسَدَ اللُّسَانُ الْعَرَبِيُّ بِمُخَالَطَتِهَا فِي بَعْضِ أَحْكَامِهِ وَتَغْيِيرِ أَوَاخِرِهِ وَإِنْ كَانَ بَقِيَ فِي الدَّلَالَاتِ عَلَى أَصْلِهِ وَسُمِّيَ لِسَانًا حَضَرِيًّا فِي جَمِيعِ أَمْصَارِ الْإِسْلَامِ .

وأيضًا فأكثر أهل الأمصار في الملة لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين لها، الهالكين في ترفها بما كثروا العجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم. واللغات متوارثة فبقيت لغة الأعقاب على حيا ل لغة الآباء وإن فسدت أحكامها بمخالطة الأعجم شيئًا فشيئًا. وسميت لغتهم حضرية منسوبة إلى أهل الحواضر والأمصار بخلاف لغة البدو من العرب فإنها كانت أعرق في العروية . ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق، وزناتة والبيزبر بالمغرب، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية فسدت اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين وسار ذلك مرجحًا لبقاء اللغة العربية المصرية من الشر والكلام إلا قليلاً بالأمصار، عريية . فلما ملك التتر والمغول بالمشرق ولم يكونوا على دين الإسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية على الإطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك الإسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم ، وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام إلا قليلاً يقع تعليمه صناعيًا بالقوانين المتدايرة من كلام العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك. وربما بقيت اللغة العربية المصرية بمصر والشام والأندلس والمغرب لبقاء الدين طلبًا لها فانحفظت بعض الشيء . وأما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق له أثر ولا عين حتى إن كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس . والله أعلم بالصواب . والله مقدر الليل والنهار . صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا أبدًا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .